النبأ العظيم
نظرات جديدة في القرآن

الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو كبار العلماء - سابقا

الجزء الثاني



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م



أول ما يفجؤك

أول ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره.

١ - دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلًا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلًا بالقرآن على هوى نفسه. ثم انتبذ منه مكانًا قصيًّا لا تسمع فيه جرْس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جردت تجريدًا وأرسلت في الهواء. فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا التجويد.

ستجد اتساقًا وائتلافًا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر. وستجد شيئًا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر. ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتًا بيتًا، وشطرًا شطرًا، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبًا متقاربًا. فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبدًا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل [1] على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك

---

(١) هل أنت بحاجة إلى معرفة مسميات هذه الألقاب؟ الحرف المتحرك يتلوه حرف ساكن يقال لهما: «سبب خفيف»، والحرفان المتحركان يتلوهما ساكن: «وتد مجموع»، والحرفان المتحركان لا يتلوهما ساكن: «سبب ثقيل»، والحرفان المتحركان يتوسطهما=

بنصيب سواء. فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

وترى الناس قد يتساءلون: لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن قارنت بينه وبين الشعر نفيًا وإثباتًا، ولم تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها؟

وأنت فهل تبينت هاهنا الجواب، وهديت إلى السر الذي فطنت له العرب، ولم يفطن له المستعربون؟

إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آنًا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى. وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء ثم إلى حد الإملال في التكرير. فإنها ما كانت تعهده قط، ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع، بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغُض من سلاسة تركيبه ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

= ساكن: «وتد مفروق»، وثلاثة أحرف متحركة يعقبها ساكن: «فاصلة صغيرة»، وأربعة أحرف متحركة يعقبها ساكن: «فاصلة كبيرة».

لا عجب إذن أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر ؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئًا منها إلا في الشعر . ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها ، فتقول : ما هو بشعر ؛ لأنه - كما قال الوليد[٢] - ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده . ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيرًا إلى أنه ضرب من السحر ؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط : فكان له من النثر جلاله وروعته ، ومن الشعر جماله ومتعته .

٢ - فإذا ما اقتربت بأذنك قليلًا قليلًا ، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة ، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها : هذا ينقر وذاك يصفر ، وثالث يهمس ورابع يجهر ، وآخر ينزلق عليه النَّفَسُ . وآخر يحتبس عنده النفس . وهلم جرا . فترى الجمال اللغوي ماثلًا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة [٣] لا كركرة ولا ثرثرة ، ولا رخاوة ولا معاظلة . ولا تناكر ولا تنافر . وهكذا ترى كلامًا ليس بالحضري الفاتر ، ولا بالبدويِّ الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها ، وقدر فيه الأمران تقديرًا لا يبغي بعضهما على بعض . فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما ، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندها تلتقي أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم .

من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال

---

(٢) تقدمت كلمة الوليد في العدد السابق «النبأ العظيم - الجزء الأول، ص: ١٠١».

(٣) من وقف على صفات الحروف ومخارجها ازداد بهذا المعنى علمًا. وإن شئت فارجع إلى ما كتبه الأديب الرافعي عن هذه الناحية في كتابه الموسوم: «إعجاز القرآن» فقد أطال نفَسه فيها وأجاد.

القرآنـي. وليس الشـأن فـي هذا الغلاف إلا كشـأن الأصـداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يُغَشَّى جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكـون ذلك من عوامل حفظهـا وبقائها بتنافس المتنافسـين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قوامًا لبقاء الإنسـان فردًا وجماعة. فكذلك لما سـبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضت حكمته أن يختـار لها صوانًـا يحببها إلى النـاس بعذوبتـه، ويغريهم عليها بطلاوتـه، ويكـون بمنزلة «الحُداء» يسـتحث النفوس على السـير إليها. ويهون عليها وعثاء السفر في طلب كمالها. لا جرم اصطفى لهـا من هذا اللسـان العربي المبيـن ذلك القالب العـذب الجميل. ومن أجل ذلك سـيبقى صوت القرآن أبدًا في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذُوق وحاسة تسْمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره، وينفذون بها إلى بعيد غوره:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزة وغرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟

فاعـرف الآن أن هـذه الغرابة كانـت قوة أخرى قامـت بها حجة القـرآن في التحـدي والإعجـاز، واعتصم بها من أيـدي المعارضين والمبدليـن، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كف أيديهم عنـه، بـل كان أجـدر أن يغريهم بـه. ذلـك أن الناس - كمـا يقول

الباقلاني [٤]: - «إذا استحسنوا شيئًا اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجبلة». وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضًا فيما يستجيدونه من الأساليب، وربما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو أربى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلا مناهل موروده، ومسالك معبدة، تؤخذ بالتعلم، وتراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يُخْضِعُوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم وهم شَرَعٌ في استحسان طريقته، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟

ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعية كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه، ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه في بنيته، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته، وجمله وآياته، من نظام له سمت وحده، وطابع خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظْم تعاطاه الناس أو يتعاطونه. فلا جرم لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به، ولا سبيلًا يسلكونه إلى تذليل منهجه. وآية ذلك أن أحدًا لو حاول أن يدخل عليه شيئًا من كلام الناس، من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فم كل قارئ، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع وإذن لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد:

---

(٤) في كتابه: «إعجاز القرآن».

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢)

***

فـإذا أنت لم يلهك جمـال العطاء عما تحته مـن الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الأسـتار عما وراءها من السر المصون، بل فَلَيتَ القشرة عن لُبِّها، وكشفت الصدفة عن دُرِّها، فنفذت من هذا النظام اللفظـي إلـى ذلك النظام المعنـوي، تجلى لك ما هـو أبهى وأبهر، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع.

لا نريـد أن نحدثك هاهنا عن معانـي القرآن وما حوته من العلوم الخارجـة عن متناول البشـر، فإن لهذا الحديـث موضعًا يجيء - إن شـاء الله تعالـى - في بحث الإعجاز «العلمـي» وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز «اللغوي»، وإنما اللغة ألفاظ.

بيد أن هذه الألفاظ ينظر فيها «تارة» من حيث هي أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها، وهذه الناحية قد مضى لنا القول فيها آنفًا، «وتارة» من حيث هي أداة لتصوير المعانـي ونقلها من نفس المتكلم إلى نفـس المخاطب بها، وهذه هي الناحية التي سـنعالجها الآن، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين أثرًا في الإعجـاز اللغوي الذي نحـن بصدده؛ إذ اللغـات تتفاضل من حيث هي بيان، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام.

أما النظر في المعاني القرآنية من جهة ما فيها من العلوم العجيبة فتلـك خطـوة أخرى ونظـرة خارجة عـن البحث اللغـوي جملة، إذ الفضيلة البيانية إنما تعتمد دقة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كمـا هو، سـواء عندها أن يكـون ذلك المعنى من جنـس ما تتناوله

عقــول النــاس أو لا يكون، بل ســواء عندها أن يكــون ذلك المعنى حقيقــة أو خيــالاً، وأن يكــون هدى أو ضــلالاً[٥]، عكــس الفضيلة العلمية، فإنها عائدة إلى المعنى في نفســه على أي صورة أخرجته، وبأي لغة عبرت عنه.

نعــم قد تتفاوت اللغــات في الوفاء بحق المعنــى فيكون التعبير الجيد مما يزيد في قيمته العلمية، لكن النظر هاهنا في قيمة البيان لا في قيمة المبيَّن، فلا تعجل علينا بتلك النظرة العلمية حتى نفرغ من هذه النظرة اللغوية.

والآن فلنبــدأ وصفنــا لبعض خصائص القــرآن البيانية. ولنرتبها على أربع مراتب: ـ

١ - القرآن في قطعة قطعة[٦] منه.

---

(٥) ولذلــك كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لا تقصر في بلاغتها عن سائر كلامه لأنها تصف ما في أنفسهم على أتم وجه.

(٦) نريــد منهــا ما يؤدي معنى تامًا كالذي يؤدى عــادة في بضع آيات وقد يؤدى في آيــة طويلة، أو سورة قصيرة وهــو الحد الأدنى الذي تنزّل إليــه التحدي أخيرا إذ قال: «فأتوا بســورة» ولم يقل بسورة من طواله أو أوساطه، بــل أطلق إطلاقًا، فتناول ذلك سور المفصل الذي كان قد نزل أكثره بمكة قبل أن ينزل هذا التحدي الأخير، حتى سورة العصر والكوثر.

وبعض النــاســ ـ كذا نقله الألوسي في مقدمة كتابه: (روح المعاني) عن قائل مجهول ـ يذهــب إلى أن التحدي لم يقع بمطلق سورة، بل سورة تبلغ مبلغًا يتبين فيه رتب ذوي البلاغــة كأنه رأى أن هذه الرتب لا تتبين في مقــدار ثلاث آيات مثلا، وهذا وإن لم يكن قادحًا في إعجــاز القرآن، ولا مبطلا لحجته «إذ يكفي ثبوت إعجازه ولو في قدر سورة البقرة أو سورة يونس، أو سورة هود، أو سورة الإسراء، أو سورة الطور، وهي السور التي ورد فيهــا ذكر التحدي» إلا أننا نحسب أن صاحــب هذا القول حين ذهب إليه إنما ظن ظنًا لم يستيقنه، واستبعد استبعاد أن تكون هذه السور القصار معجزة في بيانها؛ لأنه لم يــدرك غرابة في نظمها فلــم يفقه سر هذا الإعجاز فيها. ولكن هلا جعل ذلك حجة=

٢ – القرآن في سورة سورة منه.

٣ – القرآن فيما بين بعض السور وبعض.

٤ – القرآن في جملته.

= علـــى قلـــة بضاعته في هذه الصناعـــة ولم يجعل جهله بقيمتهـــا حجة على عدم إعجازها.

فالنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وهـــلا فكر أن العرب الذين قامت الحجة بعجزهم قد استوت قُدَرُهم أمام طواله وقصاره فلـــم يعارضوا هذه ولا تلك فهذا وحـــده حاسم لشبهته إن كان يكفيه البرهان، فإن أراد العيـــان قيل لـــه: اعمد إلى واحدة من تلك السور فحصل معانيها في نفسك، ثم جئ لها بكلام من عندك فسوف ترى أنك بين أمرين: إما ألا تؤديها على وجهها في مثل هذا القدر وبمثـــل هذا النظم، وإما أن تعيد عين ألفاظهـــا لا ثالث وحينذاك تتبين أن سر الإعجاز في القصـــير من سور القرآن مثله في الطويل، كما أن سر الإعجاز في خلق النملة مثله في خلـــق الفيـــل عرف ذلك من عرفه، وجهلـــه من جهله قال ابن عطيـــة – رحمه الله: «ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن رتبة العـــرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وقد قامت الحجة على العالم بالعرب، لانتهائهـــم إلى غاية الفصاحـــة البشرية» اهـ من الإتقان ـ نقول: ومن سار على الدرب وصل فإن لم يدرك كل ما تمنى دله ما علم على ما جهل والله المستعان.

- ١ -

«القرآن في قطعة قطعة منه»

لسنا ندري والله ماذا نقول لك في أسلوب معجز في وصفه، كما هو معجز في نفسه؟ غير أننا نقول كلمة هي جملة القول فيه، وهي أنه «تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين أطرافها».

هذه كلمة تحتاج تفسيرًا طويلًا يمتلئ به الصدر ولا ينطلق به اللسان. وكل ما سنحاوله أن نفسر لك جانبًا منها بقدر الطاقة غير أننا قبل أن نحدثك في هذا الجانب عن القرآن سنحدثك عن كلام الناس حديثًا يفهمه كل من عالج صنعة البيان بنفسه، لتعرف من وجوه النقص هاهنا وجوه الكمال هناك، ومن أبواب العجز هاهنا أسباب الإعجاز هناك:

«أ ـ ب»

«القصد في اللفظ» و«الوفاء بحق المعنى»:

نهايتان كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحداهما:

فالذي يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلًا أو كثيرًا ذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلًا، فيكون سبيله سبيل من يقول في باب المحاجة: «صدقوا، أو كذبوا». وفي باب الوصف: «حسن، أو قبيح». وفي باب الإخبار: «كان أو لم يكن». وفي باب الطلب «افعل، أو لا تفعل». لا زائد على ذلك.

وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما

استطاع من أدوات التمهيد والتشويق، ووسائل التقرير والتثبيت، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان، حتى يخرجه ثوبًا متقلصًا يقصر عن غايته، أو هيكلًا من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب ورب حرف واحد ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه، ويكشف شمس فصاحته، ورب اختصار يطوي الكلام طيًا يزهق روحه ويعمي طريقه، ويرد إيجازه عيًّا وإلغازًا، والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره، وإبراز كل دقائقه «بقدر ما يحيط به علمه وما يؤديه إليه إلهامه» لا يجد له بدًا من أن يمد في نفسه مدًا؛ لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة. فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه، ويبطئ بك في الوصول إلى غايته، فتحس بقوة نشاطك وباعثة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال عامة من تعرفهم من الفصحاء قدامى ومحدثين يؤتون من هذا الجانب غالبًا، أعني جانب الإملال والإسراف، لا جانب الإخلال والإجحاف وأكثرهم تجمع بهم شهوة البيان إلى أبعد من هذا الحد.

«فمنهم» من يذهب إلى التكلف والتفصح باستعمال الغريب من المفردات والتراكيب، فيكلفك أن تبدي وتعيد وتقبل وتدبر حتى تهتدي إلى وجه مراده، وهكذا لا يزداد كلامه بالبسط إلا ضيقا عن الفهم.

«ومنهم» من يلقي حول المعنى ركامًا من الحشو والفضول ينوء بحمله، أو يلبسه ثوبًا فضفاضًا من المترادف والمتقارب يتعثر في أذياله يحسب أنه يوفي لك المعنى ويحدده، وفي الحق إنما ينشره ويبدده ولعل أمثل هؤلاء طريقة من لو حذفت شطر كلامه لأغناك عنه ثاني شطريه.

ذلـك علـى أن البلغاء مهمـا أوجفوا من ركابهـم ، ومهما أجلبوا بخيلهم ورجلهـم لا يبلغ الواحد منهم بعمله غاية أمله ، وإنما يصل كما قلنا إلى كمال نسـبي «بقدر ما يحيط بـه علمه ، وما يؤديه إليه إلهامـه في الحـال» أما الوفـاء بالمعنى حق وفائه بحيـث لا يخطئه عنصـر منـه ولا حليـة من حـلاه ولا ينضاف إليه عـرض غريب عنه يعد رقعة في ثوبه ، ولا ينقلب فيه وضع من أوضاعه يغض من حسـن تقويمه ، وبحيث لا سـبيل فيه إلى نقض أو اقتراح جديد ، فذلك أمر لا يسـتطيع أن ينتحله رجل اكتوى بنار البيـان ، فضلًا عن أن ينحله لإنسان غيره .

وآية ذلك أنك تراه حين يتعقب كلام نفسـه في الفينة بعد الفينة يجد فيـه زائدًا يمحوه ، وناقصًا يثبته ، ويجـد فيه ما يهذب ويبدل ، ومـا يقدم أو يؤخر ، حتى يسـلك سـبيله إلى النفس سـويًا ولعله لو رجع إليه سـبعين[٧] مرة لكان له في كل مرة نظرة ، وكلما كان أنفذ بصرًا وأدق حسًـا ، كان أقل في ذلـك قناعة وأبعد همًا ، إذ يرى وراء جهده غاية هي المثل الأعلى الذي يطمح إليه ولا يطاوعه ، والكمال البياني الذي يتعلق به خياله ولا يناله :

﴿ كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾

(الرعد : ١٤)

هذا حظ الكلام البليغ عند قائله فما ظنك بناقديه ومنافسيه ؟

وهـذا وهو إنما يعمـد إلى غاية واحدة فكيف لـو عمد معها إلى الغاية الأخرى ، وحاول أن يضع هذه الثروة المعنوية في لفظ قاصد ؟ وأنى يكون له ذلك وهو سـجين هذه الفطرة الإنسانية التي لا تقرب به من أحد طرفي الطريق إلا بمقدار ما تبعد به عن الطرف الآخر ؟

---

(٧) كما يروى عن زهير في تهذيب قصائده التي كان يسميها (الحوليات).

ولئـن ظفرت بأحـد وفق لتقريـب تينك الغايتين إلـى حد ما في جملـة أو جملتيـن، فتربـص به كيف يكـون أمره بعـد ذلك وانظر كيف يدركه الكلال والإعياء وفترة الطبع الإنساني فينحلُّ من عقدة كلامه ما كان وثيقًا، ويذبل من زهرته ما كان غضًا طريًا، ثم لا يعود إلى قوته إلا في الشـيء بعد الشـيء، كما تصـادف في التراب قطعة مـن التبر هاهنا وقطعة هنالك فتقـول: هذا نفيس جيد، وهذا أنفس وأجود، وهذا هو واسطة العقد وبيت القصيد.

سـل العلماء بنقد الشـعر والكلام: «هل رأيتم قصيدة أو رسـالة كلها أو جلها معنى ناصع، ولفظ جامع، ونظم رائع؟» ـ لقد أجمعت كلمتهم على أن أبرع الشـعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محـدودة، من قصائد معـدودة، وكان لهم من وراء ذلك المتوسـط والـرديء والغث والمسـتكره وكذلك قالوا في الكتـاب والخطباء والأمر فيهم أبين.

فإن سـرك أن ترى كيـف تجتمع هاتـان الغايتان علـى تمامهما بغيـر فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شـئت من القرآن الكريم، تجد بيانًـا قد قدِّر على حاجة النفس أحسـن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسـراف ولا بمخمصة التقتير يؤدي لك مـن كل معنى صورة نقية وافية: «نقية» لا يشـوبها شيء مما هو غريب عنها، «وافية» لا يشذ عنها شـيء من عناصرهـا الأصلية ولواحقهـا الكمالية كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه.

ففـي كل جملـة منه جهـاز من أجهـزة المعنى، وفـي كل كلمة منـه عضو من أعضائه، وفـي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماتـه من جملـه، وأوضاع جمله من آياته سـر الحياة الذي ينتظم

المعنى بأداته، وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني: «محاسن متوالية[٨]، وبدائع تترا».

ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعد ما أحصته كفك من الكلمات عدًا، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجًا[٩] عن الدفتين وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك، ثم انظر: كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية: «لو نُزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد[١٠] بل هو كما وصفه الله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)[١١].

(ج - د)

«خطاب العامة» و«خطاب الخاصة»:

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس فلو أنك خاطبت

(٨) أصل الكلمة «تتوالى» هكذا في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني، ولكننا نقلناها بالمعنى ولم ننقلها قصدًا لإصلاح خطأ مشهور بين المبتدئين، إذ يظنون كلمة «تترا» فعلا مضارعًا، وإنما هي اسم منصوب أصله وترًا، أي متتابعًا، ولا يخفى أن جعل القرينة الأولى فعلا مضارعًا من شأنه أن يقرر هذا الوهم في نفس الطالب فآثرنا تعديلها على هذا الوجه مع التنبيه على ذلك.

(٩) وكلام النبي ﷺ وإن كان لما أشربه من روح الوحي - أوجز وأفصح كلام تكلم به الناس، لا يبلغ في وجازته واكتنازه وامتلائه بتلك الثروة المعنوية معشار ما تجده من ذلك في القرآن الكريم.

(١٠) عن الإتقان.

(١١) وأنت فأنعم النظر في هذه الآية الكريمة تجدها قد جمعت كل ما بسطناه في هذا الفصل بكلمتي «الإحكام» و«التفصيل» وأي إحكام وتفصيل؟ إحكام من «حكيم» متقن لا خلل في صناعته، وتفصيل من «خبير» عالم بدقائق الأمور وتفاصيلها على ما هي عليه.

الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم فلا غنى لك ـ إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملًا من بيانك ـ أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال.

فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧)

«هـ ـ و»

«إقناع العقل» و«إمتاع العاطفة»:

وفي النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم. والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معًا.

فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء

فمـا وجدنا مـن هؤلاء ولا هـؤلاء إلا غلـوًا في جانب، وقصـورًا في جانب.

«فأما» الحكماء فإنما يـؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك فتراهم حيـن يقدمـون إليك حقائـق العلـوم لا يأبهون لما فيهـا من جفاف وعري ونبو عن الطباع.

«وأما» الشـعراء فإنما يسعون إلى اسـتثارة وجدانك، وتحريك أوتار الشـعور من نفسـك فلا يبالـون بما صوروه لـك أن يكون غيًا أو رشـدًا وأن يكـون حقيقـة أو تخيـلاً فتراهم جادين وهـم هازلون يسـتبكون وإن كانـوا لا يبكـون، ويطربـون وإن كانـوا لا يطربون ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦).

وكل امرئ حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير، وكل امرئ حين يحس ويشعر فإنما هو شاعر صغير، فسل علماء النفس: «هل رأيتم أحدًا تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسـائر القوى النفسـية على سواء؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فهل ترونها تعمل في النفس دفعة وبنسـبة واحدة؟» يجيبوك بلسان واحد: «كلا، بل لا تعمل إلا مناوبة في حال بعد حال، وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها، فالذي ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره، وهكذا لا تقصد النفس الإنسـانية إلى هاتين الغايتين قصدًا واحدا وإلا لكانت مقبلة مدبرة معًا وصدق الله:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾

(الأحزاب: ٤)

فكيف تطمع من إنسان في أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء، وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء؟ وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه من بين تلك الأحوال.

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاضعًا لها حين قال أو كتب: «فإذا» رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت: هذا ثمرة الفكرة. «وإذا» رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها وقبضها أو بسطها، واستثارة كوامن لذتها أو ألمها، قلت هذا ثمرة العاطفة. «وإذا» رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرغ له بعد ما قضى وطره من سابقه، كما ينتقل من غرض إلى غرض، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه.

وأما أن أسلوبًا واحدًا يتجه اتجاهًا واحدًا ويجمع في يديك هذين الطرفين معًا، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقًا وأزهارًا وأثمارًا معًا، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية فمن لك إذن بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المَرحين؟

ذلك الله رب العالمين. فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن. وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معًا بلسان. وأن يمزج الحق والجمال معًا يلتقيان ولا يبغيان. وأن يُخْرِجَ من بينهما شرابًا خالصًا سائغًا للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت – ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره[١٢] لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟

---

(١٢) اقرأ مثلا سورة القصص وسورة يوسف عليه السلام.

أوَ لا تـراه فـي معمعـة براهينـه[١٣] وأحكامه[١٤] لا ينسـى حظ القلـب من تشـويق وترقيـق، وتحذير وتنفير، وتهويـل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها:

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾

(الزمر: ٢٣)

و﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾

(الطارق: ١٣، ١٤)

---

(١٣) اقرأ مثلا قوله تعالى:
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبيـاء: ٢٢)
وانظر كيف اجتمع الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة. بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ووضوح المقدمات المسلمة ودقة التصوير لما يعقب التنازع من «الفساد» الرهيب. فهو برهاني خطابي شعري معًا. هل تجد مثل هذا في كتاب من كتب الحكمة النظرية؟

(١٤) اقرأ مثلا قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٨)
وانظر الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾
وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله: أَخِيهِ وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقوله: ﴿بِإِحْسَانٍ﴾، والامتنـان في قولـه: ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والتهديد في ختام الآيـة. ثم انظر في أي شأن يتكلم؟ أليس في فريضة مفصلة وفي مسألة دموية؟ وتتبع هـذا المعنى في سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء والظهار. ففي أي كتاب من كتب التشريـع تجد مثـل هذا الروح؟ بل في أي لسان تجد هذا المـزاج العجيب؟ تالله لو أن أحـدًا حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه ووزع أجزاء نفسه، لجاء بالأضداد المتنافرة ولخرج بثوب بيانه رقعًا ممزعة.

(ز – ح)

«البيان» و«الإجمال»:

وهــذه عجيبة أخــرى تجدها في القــرآن ولا تجدها فيما ســواه. ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل. وإذا أجملوهــا ذهبــوا إلى الإبهام أو الإلباس. أو إلــى اللغو الذي لا يفيد. ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفســك دون كد خاطر ولا اســتعادة حديث. كأنك لا تســمع كلامًا ولغــات بــل ترى صورًا وحقائــق ماثلة. وهكذا يخيــل إليك أنك قد أحطت به خبــرًا، ووقفت على معناه محدودًا – هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة [15]

---

(١٥) هذا مثل صغير: اقرأ قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة: ٢١٢)

وانظــر هل ترى كلامًا أبــين من هذا في عقول الناس. ثم انظر كــم في هذه الكلمة من مرونة. فإنك لو قلت في معناها: إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائــل يسأله: لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء؟ أصبت. ولو قلت: إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد، أصبت. ولو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب، أصبت. ولو قلت إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة لــه على عمله، أصبت. ولو قلت: يرزقه رزقًا كثيرًا لا يدخل تحت حصر وحساب، أصبت. فعلــى الأول يكــون الكلام تقريرًا لقاعدة الأرزاق في الدنيــا وأن نظامها لا يجري على حســب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله، بل تجري وفقًا لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين، ومن الهضم لنفوس المغرورين مــن المترفين. وعلى الثاني يكون تنبيهًا على سعة خزائنه وبسطة يده جل شأنه. وعلى الثالث يكون تلويحًا للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم يسرًا وفقرهم غنى من حيث لا يظنون. وعلى الرابع والخامس يكون=

وجوهًا عدة. كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع. ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت. وهكذا تجد كتابًا مفتوحًا مع الزمان يأخذ كل منه ما يسر له، بل ترى محيطًا مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال.

ألم تر كيف وسع الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول والفروع؟ وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث؟ وهو على لينه للعقول والأفهام صلب متين، لا يتناقض ولا يتبدل. يحتج به كل فريق لرأيه، ويدعيه لنفسه، وهو في سموه فوق الجميع يطل على معاركهم حوله، وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء وهؤلاء:

﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٤)

***

ها نحن أولاء قد عرضنا لك جانبًا من تلك العجائب البيانية التي لا تنال مثلها أيدي الناس. وها قد أعطيناك في حاشية كل منها نموذجًا صغيرًا يفتح لك الباب إلى احتذائه في سائر القرآن. فهل ترى في هذا وفاءً بما وعدناك، وبما عودناك، من التقفية على آثار التفصيل بشيء من التطبيق والتمثيل؟ أم لا تزال بحاجة إلى المزيد من هذه الأمثلة؟

= وعدًا للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافًا كثيرة لا يحصرها العد. ومن وقف على علم التأويل واطلع على معترك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العاجب.

سـنزيدك، وسـنوجه نظرك بنوع خاص إلى دقـة التعبير القرآني ومتانة نظمه، وعجيب تصرفه حتى يؤدي لك المعنى الوافر الثري، في اللفظ القاصد النقي، إذ كانت هذه الخاصة الأولى – من الخواص التي ذكرناها – أحوج إلى التوقيف والإرشاد.

ولا تحسبن أننا سنضرب لك الأمثال بتلك الآيات الكريمة التي وقع اختيار الناس عليها وتواصفوا الإعجاب بها، كقوله تعالى:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾[١٦]

(هود: ٤٤)

وقوله:

﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾[١٧]

(البقرة: ١٧٩)

وأشباههما. بل نريد أن نجيئك بمثال من عُرض القرآن في معنى لا يأبه له الناس ولا يقع اختيارهم على مثله عادة، ليكون دليلا على ما وراءه.

يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم

(١٦) اقـرأ إن شئت مـا كتبه السكاكي عن هذه الآية في كتابـه: (مفتاح العلوم) بعد تعريف البلاغة والفصاحة في آخر علم البيان.

(١٧) اقرأ ما كتبه عنها المفسرون وما كتبه صاحب (الإتقان) في بحث الإيجاز والإطناب.

بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(البقرة: ٩١ - ٩٣)

هـذه قطعة من فصل من قصـة بني إسـرائيل. والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلي:

(١) مقالـة ينصح بها الناصح لليهـود، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.

(٢) إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين.

(٣) الرد على هذا الجواب بركنيه، من عدة وجوه.

وأقسـم لـو أن محاميًا بليغًا وكلت إليه الخصومة بلسـان القرآن فـي هذه القضيـة، ثم هدي إلى اسـتنباط هذه المعانـي التي تختلج في نفس الداعي والمدعو لما وسـعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات. ولعله بعد ذلك لا يفي بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق.

قال الناصح لليهود: آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة، ألسـتم قد آمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى لأنها أنزلها الله، فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله، فآمنوا به كما آمنتم بها.

فانظـر كيف جمع القرآن هذا المعنـى الكثير في هذا اللفظ الوجيـز ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. وسـر ذلـك أنه عـدل بالكلام عن صريح اسـم القرآن إلـى كنايته فجعل دعاءهـم إلى الإيمان به دعاء إلى الشـيء بحجته، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد.

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل: آمنوا بما أنزل الله

«على محمد» مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة. أتدري لم ذلك؟ لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائدًا وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسدًا. أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدليل. وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح.

ذلك إلى ما في هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام، وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة، بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء: بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم. لا نفرق بين شيء من كتبه، كما لا نفرق بين أحد من رسله.

كان جواب اليهود أن قالوا: إن الذي دعانا للإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا، والقرآن لم ينزله علينا، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا. ولكل أمة شرعة ومنهاج.

هذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله:

﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾

وهذا هو المقصد الأول. وقد زاد في إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة؛ لأنه تقدم ذكره في نظيرتها.

من البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومئ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم، وهذا هو المقصد الثاني. ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم

بالكفــر، فأراد القرآن أن يبرزه. انظر كيف أبرزه؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهــم مذهبًا لهم، ولــم يدخل مضمون قولهم فــي جملة ما نقله مــن كلامهم، بل أخرجه في معرض الشــرح والتعليق على مقالتهم: فقــال: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أليس ذلك هــو غاية الأمانة في النقل!

ثــم انظر إلــى التعبير عن القرآن بلفــظ ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ فإن لهذه الكلمــة وجهًــا تعم به غيــر القرآن ووجهًــا تخص به هــذا العموم. ذلــك أنهم كما كفروا بالقرآن المنــزل على محمد كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى، وكلاهما وراء التوراة، أي جاء بعدها. ولكنهم لم يكفروا بمــا قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلًا. وهكذا تراه قد حدد الجريمة تمام التحديد باســتعمال هذا اللفــظ الجامع المانع. وهذا هو غاية الإنصاف وتحري الصدق في الاتهام.

جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه.

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم، بل يتركها مؤقتًا كأنها مســلمة ليبني عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب، فيقــول: كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثًا على الكفر بما هو حق مثله؟ - لا، بل «هو الحق» كله[١٨] - وهل يعارض الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجبًا للكفر بالآخر؟!

ثــم يترقى فيقــول: وليس الأمر بيــن هذا الكتــاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق، فقد يكون الشيء حقًا وغيره حقًا فلا يتكاذبان، ولكنهما في شــأنين مختلفين فلا يشــهد بعضهما لبعض. أما هذا الكتاب فإنه جاء شــاهدًا و﴿مُصَدِّقًا﴾ لما

(١٨) فــإن مــا سواه إن خالفه كان شاهدًا على نفسه بالبطــلان، وإلا كان صحيحًا أو محتملا للصحة، فهو إذن معيار الحق وميزانه.

بين يديه من الكتب. فأنى يكذب به من يؤمن بها؟!

ثم يستمر في إكمال هذا الوجه قائلًا: ولو أن التحريف أو الضياع الذي نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جملة لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن، إذ يحق لهم أن يقولوا: «إن البقية المحفوظة من هذه الكتب في عصرنا ليس بينها وبين القرآن هذا التطابق والتصادق، فليس الإيمان بها موجبًا للإيمان به». بل لو أن هذه البقية ليست عندهم ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين، لكان لهم مثل ذلك العذر. أمَّا وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ويدرسونه بينهم فبماذا يعتذرون وأنى يذهبون؟! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة: ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

فانظر إلى الإحكام في صنعة البيان: إنما هي كلمة رفعت وأخرى وضعت[19] في مكانها عند الحاجة إليها، فكانت هذه الكلمة حسما لكل عذر، وسدًا لكل باب من أبواب الهرب، بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم أتمت في خطوة واحدة، وفي غير ما جلبة ولا طنطنة.

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوي الذي ساقه مساق الاعتراض والاستطراد، استوى إلى الرد على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعلانه والافتخار به، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، فأوسعهم إكذابًا وتفنيدًا، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه في قلوبهم، ومضت عليه القرون حتى أصبح

(١٩) ذلك أنه كان مقتضى السياق أن يقال: «مصدقًا لما أنزل عليهم» ولكنه لأمر ما نحى عن كتابهم ذلك اللقب القديم، وألبسه هذا العنوان الجديد ولو بدلت أحد اللقبين مكان الآخر لما صلح أحدهما في موضع صاحبه،بل لو جئت بلقب آخر فقلت: «مصدقًا لما هو باق في زمنهم» أو «مصدقًا لما عندهم» لما تم الإلزام، وهذا من عجيب شأن القرآن: «لا تبديل لكلماته».

مرضًـا مزمنًـا . وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بمـا أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظعة التي لا سبيل لإنكارها ، في جهلهم بالله ، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(١) تأمـل كيف أن هـذا الانتقال كانت النفس قد اسـتعدت له في آخر المرحلة السـابقة ، إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسـه ، وهل الذي يكذب من يصدقك يبقى مصدقًا لك ؟ !

غير أن هذا المعنى إنما أخذ اسـتنباطًا مـن أقوالهم ، وإلزامًا لهم بمآل مذهبهم ، ولم يؤخذ بطريق مباشـر من واقع أحوالهم . فكانت هذه هي مهمة الرد الجديد .

وهكـذا كانـت كلمـة ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ مغلاقًـا لمـا قبلها مفتاحًـا لمـا بعدها ، وكانت آخر درجة في سـلم الغـرض الأول هي أول درجة في سـلم الغرض الثاني . فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام ! وما أرشـد هذه القيادة للنفس بزمام البيان ، تدريجًا له على مدارجهـا ، وتنزيلا له على قدر حاجتها وفي وقت تلك الحاجة ! فما هو إلا أن آنس تطلع النفس واستشـرافها من تلك الكلمة إلى غاية ، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ووقفها عليها تامة كاملة .

(٢) وانظر كيف عدل بالإسـناد عن وضعه الأصلي وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم ، فلم يقل :

« فلـم قتل آباؤكم أنبيـاء الله ، واتخذوا العجل ، وقالوا سـمعنا وعصينـا ؟ » ، إذ كـان القول على هذا الوضـع حجة داحضة في بـادئ الرأي ، مثلهـا كمثل محاجـة الذئب للحمـل في الأسـطورة

المشـــهورة [٢٠] فــكان يحــق لهم فــي جوابهــا أن يقولــوا : «وما لنا ولآبائنا ؟ تلك أمة قد خلت ، ولا تزر وزارة وزر أخرى» .

ولو زاد مثلاً : «وأنتم مثلهم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم» لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتراخى حبل الكلام وفترت قوته .

فــكان اختصــار الــكلام على مــا تــرى - بوقفهم بــادئ ذي بدء في موقف الاتهام - إســراعًا بتســديد[٢١] ســهم الحجة إلى هدفها ، وتنبيهًا في الوقت نفســه علــى أنهم ذرية بعضها مــن بعض ، وأنهم سواسية في الجرم فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم ؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم ، أو الرضى عن أفاعيلهم ، أو الانطواء على مثل مقاصدهم .

(٣) وانظــر كيف زاد هــذا المعنى ترشــيحًا بإِخــراج الجريمة الأولــى وهي جريمــة القتل في صيغــة الفعل المضــارع تصويرًا لها بصــورة الأمــر الواقــع الآن ، كأنه بذلك يعــرض علينا هــؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية .

(٤) ولقــد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام ممــا يفتــح بابًا من الإِيحاش لقلــب النبي العربي الكريــم ، وبابًا من الأطماع لأعدائه في نجاح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله . فانظر كيف أسـعفنا بالاحتراس عــن ذلك كله بقولــه : ﴿مِن قَبۡلُ﴾ فقطع بهذه الكلمة أطماعهــم وثبت بها قلب حبيبه ، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس . ذلك إلى ما فيها من تنبيه على أصل وضع الكلام

---

(٢٠) التي تزعم أن ذئبًا عدا على حمل صغير بحجة أن أخاه أو أباه كان قد عكر عليه مـــاء القناة وهو يشرب منذ عام مضى. وهي تمثل عدوان القوي على الضعيف استنادًا لأوهن الأسباب.

(٢١) وهذا هو ما يسمى في المناظرة «بالتقريب» بين الدليل والمطلوب.

وعلى ما صُنع به من التجوز المذكور آنفًا في الإسناد وفي الصيغة.

(٥) وانظر كيف جيء بالأفعال في الجرائم التالية على صيغة الماضي بعد أن وطأ لها بهذه الكلمة: «من قبل» فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول.

(٦) وانظر إلى الآداب العالية في عرض الجريمة الثانية وهي جريمة الشرك، فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها وأشد نكرًا في العقول نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها، فلم يقل اتخذتم العجل إلهًا بل طوى هذا المفعول الثاني استبشاعًا للتصريح به في صحبة الأول، وبيانًا لما بينهما من مفارقة... وكم في هذا الحذف من تعبير وتهويل!! فرب صمت هو أنطق بالحكم، وأنكى في الخصم.

(٧) ثم انظر إلى النواحي التي أوثر فيها الإجمال على التفصيل، إعراضًا عن كل زيادة لا تمس إليها حاجة البيان في الحال، فقد قال إن القرآن مصدق لما معهم، ولم يبين مدى هذا التصديق: أفي أصول الدين فحسب، أم في الأصول والفروع جميعًا، أم في الأصول وبعض الفروع وإلى أي حد؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا يتنزل إلا بقدر معلوم. وماذا يعني الداعي إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها أو لا يمتد؟ فليبحث علماء التشريع!

وقال إنهم يقتلون أنبياء الله فمن هم أولئك الأنبياء؟... ليبحث علماء التاريخ!

وقال إن موسى جاءهم بالبينات فكم هي؟ وما هي؟

وقال إنه أخذ عليهم ميثاقهم فعلى أي شيء كان الميثاق؟

إن حكمة البيان القرآني لأجلّ من أن تعرض لهذه التفاصيل في مثل هذا الموضع ولو ذكرت هاهنا لكان مثلها مثل من يُسأل: لم

ضربت عبدك ؟ فيقول : لأنه ضرب غلامًا اسـمه كذا واسـم أبيه كذا وحليته كذا وولد في عام كذا ألا ترى أن هذا زائد وكثير[٢٢] .

(٨) ولـو ذهبنـا نتتبع سـائر مـا في هـذه القطعة مـن اللطائف لخرجنـا عن حد التمثيل والتنبيه الذي قصدنا إليه فلنكتف بتوجيه نظـرك فيها إلى سـر دقيـق لا تراه في كلام الناس ذلـك أن المرء إذا أهمـه أمر من الدفـاع أو الإقناع أو غيرهما بدت على كلامه مسـحة الانفعـال بأغراضه ، وكان تأثيره بها في نفسـك على قدر تأثره هو ، طبعًا أو تطبعًا ، فتكاد تحس بما يخالجه من المسـرة في ظفره ومن الامتعـاض فـي إخفاقه ، بل تراه يكاد يهلك أسـفًا لـو أعرض الناس عـن هـداه إذا كان مؤمنًا بقضيته ، مخلصًا في دعوته ، كما هو شـأن الأنبياء - عليهم السـلام - أما هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض ، قوة تؤثر ولا تتأثر ، تصف لك الحقائق خيرها وشـرها في عزة من لا ينفعه خير ، واقتدار من لا يضره شـر ، هذا الطابع من الكبرياء والعظمة تراه جليًا من خلال هذا الأسـلوب المقتصد في حجابه أخذًا وردًا ، المقتصد في وصفه مدحًا وقدحًا .

انظـر إليه حين يجـادل عن القرآن فلا يزيد فـي وصفه على هذه الكلمـة : ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ نعـم إنهـا كلمـة تملأ النفـس ، ولكن هل تُشـبعك أيها الإنسـان تلك الكلمـة إذا أردت أن تصـف حقيقة من الحقائق التي تقتنع بها وتحب أن تُقنع بها الناس ؟

---

(٢٢) ومن هنا عيب على امرئ القيس تفصيله في غير موضع التفصيل، وذلك فيما هو معدود من أجود شعره - قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها.. لما نسجتهـا من جنوب وشمأل

لم يقنع في وصف المنزل بقوله «بسقط اللوى» حتى حده بحدود أربعة. قال الباقلاني «كأنه يريد بيع المنزل، فيخشى إن أخل بحد منه أن يكون بيعه فاسدًا أو شرطه باطلا!»

وانظر إليه بعد أن سجل على بني إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذي هو مَثَلٌ في البلادة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة؛ فتراه لا يزيد على أن يقول في الأولى: إن هذا «ظلم» وفي الثانية: «بئسما» صنعتم أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما، ولكن الألم وحرارة الاندفاع في الانتقام؟ بل أين الإقذاع والتشنيع وأين الإسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم؟

لله ما أعفَّ هذه الخصومة، وما أعز هذا الجناب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر.

قلنا إن القرآن الكريم يستثمر دائمًا برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، أجل؛ تلك ظاهرة بارزة فيه كله؛ يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب؛ ولذلك نسميه إيجازًا كله [٢٣] لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد،

---

(٢٣) لما كان هذا اصطلاحًا جديدًا نخالف به مصطلح القوم لم نر بدًا من إيضاح سبب المخالفة: -

قسم علماء البلاغة الكلام إلى «مساوٍ» و«موجز» و«مطنب»، وعرفوا المساواة بأنها أداء المعنى بلفظ على قدره، والإيجاز بأنه أداء المعنى بلفظ ناقص عنه واف به، والإطناب بأنه أداء المعنى بلفظ زائد عنه لفائدة، وجعلوا المقياس الذي يضبط به هذا التقسيم أمرًا عرفيًا أو وضعيًا: فاعتبر السكاكي المقدار الذي يتكلم به أوساط الناس في محاوراتهم ومتعارف خطابهم، هو ضابط المساواة وهو القدر الذي لا يحمد منهم ولا يذم في باب البلاغة، فما نقص عنه مع الوفاء به فهو الإيجاز، وما زاد عنه مع الإفادة=

= فهو الإطناب، والكلام البليغ إنما يقع في هذين الطرفين. هذا محصول كلام السكاكي، وقد وافقه الذين جاءوا من بعده على هذا التقسيم، إلا أن بعضهم رأى أن البناء على العرف فيه رد إلى الجهالة، فجعل حد المساواة هو المقدار الذي يؤدي المعاني الأولية بالوضع من غير رعاية للمناسبات الزائدة على أصل المعنى.

وقد فهمنا من وضعهم التقسيم على هذا الأساس، واعتبارهم المساواة بأحد هذين المقياسين المتحدين في المآل، أنهم ظنوا أن العبارة التي تؤدى بها المعاني الأولية في لسان العوام تقع دائمًا بين الإطالة والاختصار، وهذا ما لا دليل عليه في العرف ولا في الوضع، أما الأول فإن العوام يتكلمون في المعنى الواحد باللفظ المطول تارة وبالمختصر تارة أخرى، وإن لم يتحروا إصابة المحزّ في كل منهما، وأما الثاني فلأن اللفظ الذي وضع في اللغة لتأدية المعنى الأول مختلف، فمنه من يؤديه بوجه مجمل، ومنه ما يؤديه بلفظ مفصل، وكل من الإجمال والتفصيل يتفاوت في نفسه تفاوتا كثيرا، فلا ينضبط منهما قدر يرجع إليه في معرفة الإيجاز والإطناب، إذ ما من كلام وجيز إلا ويمكن تأدية معناه الإجمالي بأقل من لفظه أو بما يساويه، وإن لم يغن غناءه ولم يوف وفاءه، حتى المثل الذي عدوه علمًا في الإيجاز وهو قوله تعالى:

﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩)

يمكن تأدية أصل معناه بقولك «انتقم تسلم» أو «اقتص تحيا» أو بالاكتفاء بكلمتين منه «القصاص حياة» بل فاتحة الكتاب الكريم التي جمعت مقاصد القرآن كلها في سبع آيات يمكن أداء معانيها الأصلية في خمس كلمات: «نحمدك اللهم ونعبدك، ونستعينك ونستهديك» وإن شئت في أقل من ذلك.

وكذلك يقال: ما من كلام مطنب إلا ويمكن تأدية معناه الوضعي مفصلا في لفظ أطول منه، فقوله تعالى:

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ (البقرة: ١٩٤)

إيجاز وقد جاء بسطه في قوله:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(المائدة: ٤٥)

وهذا الكلام على طوله يعد موجزًا إذا قيس إلى قولك في مثل معناه: «من قتل نفسًا قتل بها، ومن فقأ عينًا فقئت عينه، ومن جدع أنفًا جدع أنفه، ومن جدع أذنًا جدعت أذنه، ومن كسر سنًا كسرت سنه... وإن شئت زدت: واليد باليد، والأصبع بالأصبع، والأمة بالأمة والموضحة بالموضحة وهلم جرا» وقوله تعالى:

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ (المائدة: ٥٩)=

=جاء معناه مبسوطًا في قوله:
﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٦)

وهــذا المعنى يؤدي عادة بقولك: آمنا بالله وبالقرآن الــذي أنزله إلينا، وبالتوراة التي أنزلها الله على موســى، وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، وبالزبور الذي آتاه الله لــداود، وبالصحف التي آتاهــا الله لإبراهيم... ولو شئت عــددت الأسباط سبطًا سبطًا، وذكــرت سائر من قص الله علينا من النبيين في غير هذا الموضع، بل لو شاء الله لقص علينا من أنباء سائر الرسل ما لم يقصه علينا.

والقــوم معترفون ضمنًا بوجود هاتين المرتبتــين في كلام العوام، إذ قالوا: إن مرتبتي الاختصــار المخل والتطويل الممل ليستا مــن البلاغة في شيء، فإذا لم تكونا من كلام البلغاء كانتا البتة من كلام غير البلغاء وإلا فكلام من تكونان؟ وإذن فلا تصلح المعاني الأولية ولا العبارات العامية مقياسًا منضبطًا للوسط المفروض.

هــذا وقد نشأ مــن قياسهم التوسط بالمقدار الذي تؤدى بــه المعاني الأولية في لسان العــوام - بعد تسليم كونه وسطًا - أن جعلــوا الفضيلة البيانية في هذا الباب مائلة أبــدًا إلى طرف النقص أو طرف الزيــادة، وذلك عكس ما بنيت عليه قاعدة الفضائل من تبوئهــا مكانًا وسطًا بين الأطراف، (ولقد تعجب إذا رأيتهم يرجعون فيدخلون المساواة في كلام الرجــل البليغ إذا دعاه إليها داع، كأن يكون كلامه مع العامة، ثم تزداد عجبًا إذا رأيتهــم يدخلونها في القرآن نفسه، وهــو كما علمت خطاب للعامة وللخاصة على السواء، ويمثلونها بقوله تعالى:

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ ﴾ (فاطر: ٤٣)

على أن في هذه الكلمة إيجازًا بالحذف على اصطلاحهم نفسه، إذ المعنى لا يحيق ضرر المكر وعاقبته.

لهــذا كله رأينا أن نضــع التقسيم وضعًا آخر نرد فيه الفضيلــة إلى نصابها من الحد الوســط، ونرجع فيه الذم إلى الطرفين وذلــك يجعل المقياس هو المقدار الذي يؤدى به المعنــى بأكمله، بأصله وحليته على حسب ما يدعو إليه المقام من إجمال أو تفصيل؛ بغــير إجحاف ولا إسراف هذا القدر الذي من نقص عنــه أو زاد عده البلغاء حائدًا عن الجادة بقدر ما نقص أو زاد، هو الميزان الصحيح الذي لك أن تسمي طرفيه بحق تقصيرًا أو تطويــلا، وأن تسميه هو بالمساواة أو القصد أو التوسط أو التقدير أو ما شئت فسمه ونحن قد سميناه أيضًا باسم «الإيجاز» مطمئنين إلي صحة هذه التسمية، إذ رأينا حد=

=الإيجـــاز ينطبق عليه، فما الإيجـــاز إلا السرعة والتخفيف في بلـــوغ الحاجة بالقدر الممكـــن، فالذي يسرع فوق الطاقة لا يبلغك حاجتك فيكون مجحفًا مخلا، والذي يبطئ حيـــث تمكن السرعة لا يكـــون إلا مسرفًا مملا، ورأينا الناس مازالـــوا يتواصدون بهذه الوجـــازة في البيـــان ويجعلون خير الكلام ما قل ودل، حتـــى روي عن سيد البلغاء – صلـــوات الله وسلامه عليه وعلى آله – أنه قال لجرير بن عبدالله البجلي: «يا جرير إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف» (كنز العمال) هكذا أحفظه ولا يحضرني الآن تخريجه وما سمعنا أحدًا يوصي بهذا الإطناب الذي عده المؤلفون فضيلة ثانية تقابل الإيجاز، وإنما هـــو إحدى شعبيته: الاختصار المفهم أو الإطنـــاب المفخم، ولو سميناه فضيلـــة ثانية تقابله لخشينـــا أن تكون هذه المقابلة وحدهـــا رخصة في التحلل من قيوده وتسامحًا في الإكثار الذي جاء ذمه بكل لسان، حتى قال ﷺ: «وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالســـ يوم القيامة أساوئكم أخلاقًا، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون – رواه أحمد وابن حبان وغيرهما عن أبي ثعلبة.

فـــلا وربك إنما هي فضيلة واحدة تطلب من المتكلم في كل مقام، ويؤخذ بها في سعة التفصيل كما يؤخذ بها في ضيق الإجمال، بل لعلها في مقام التفصيل آكد طلبًا وأصعب منـــالا، فالكلام الطويل إن حوى كل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة في الموضع ولا يسهل أداء تلك القاعدة بأقل منه كان هو عين الإيجاز المطلوب، وإن أمكن أداء الأغراض فيـــه كاملة بحذف شـــيء منه أو بإبداله بعبارة أخصر منـــه كان هو حشوًا أو تطويلًا معيبًـــا. والكلام القصير إن وفى بالمقاصد الأصيلة والتكميلية المناسبة في الحال كان هو التوسط المطلوب وإلا كان بترًا أو تقصيرًا معيبًا.

وليســـ الإيجاز قاصرًا على جانب الإجمال كما زعمـــوا حتى بنوا عليه ما بنوا وحتى أخرجوا منه مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾

(البقـــرة: ١٦٤) وجعلوها من باب الإطناب بحجة أنه يمكن إيجازها بهذه العبارة: «إن في ترجيـــح وقوع أي ممكـــن كان لا على وقوعه لآيات للعقلاء – مفتاح العلوم» وأنت فهـــل عهدت عربيًا قط بليغًا أو غير بليغ تكلم بهذا التعبير الفلسفي الجاف القلق الذي افترضـــه السكاكي مقياسًا للمســـاواة في معنى الآية – كلا، إنك لو رجعت إلى ما تكلم به الناس في آيات الله الكونية تفصيلا أو إجمالا لرأيت كلامًا عربيًا صحيحًا أطول من هـــذا أو أقصر، ولرأيت الآية الكريمة هي أوجز كلام وأحكم نظام في بابها من التفصيل، كما أن قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١)=

ولا يميــل إلى الإســراف ميلا ما، ونــرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكــن تأديتها كاملــة العناصر والحلى بأقل مــن ألفاظه، ولا بما يســاويها فليــس فيه كلمة إلا هــي مفتاح لفائدة جليلــة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى.

دع عنــك قــول الذي يقــول في بعــض الكلمــات القرآنيــة إنها «مُقحمــة»، وفي بعض حروفه إنهــا «زائدة» زيادة معنوية، ودع عنك قول الذي يســتخف كلمة «التأكيد» فيرمــي بها في كل موطن يظن فيــه الزيادة، لا يبالي أن تكون تلك الزيــادة فيها معنى المزيد عليه فتصلــح لتأكيــده أو لا تكــون، ولا يبالي أن يكــون بالموضع حاجة إلــى هــذا التأكيــد أو لا حاجة له بــه. أجل دع عنك هــذا وذاك؛ فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شــبهها إنما هو ضرب من الجهل - مســتورًا أو مكشــوفًا - بدقة الميــزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن.

وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح فإن عمي عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف فإياك أن تعجــل كما يعجل هؤلاء الظانون ولكن قل قولًا ســديدًا هو أدنى إلــى الأمانة والإنصاف قل: «الله أعلم بأســرار كلامه، ولا علم لنا إلا بتعليمه» ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن اســتجلاء تلك الأسرار قائلًا: أين أنا من فلان وفلان؟... كلا، فرب صغير مفضول

=هو أوجز كلام في بابه من الإجمال.

قلنا إن فضيلة الإيجاز بمعنــاه الصحيح هي الوسط المعتدل، وهي الفضيلة الوحيدة التي تواصــى بها البلغاء في كل مقام بحسبه غير أنه ليس للإنسان ما تمنى، فالمثل الكامل وإن تطاولت إليــه أعناق الناس وتفاوتوا في طلبه قربًا وبعدًا، لا يستطيع أحد منهــم أن يأتي على غايته، وإنما أتى عليها القرآن الحكيم، فهو المثل الأعلى في حسن الإيجاز. كيف لا وهو حد الإعجاز؟!

قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل، ألا ترى إلى قصة ابن عمر في الأحجية المشهورة [٢٤]؟ فجدَّ في الطلب وقل: رب زدني علمًا؛ فعسى الله أن يفتح لك بابًا من الفهم تكشف به شيئًا مما عمي على غيرك، والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ولنضرب لك مثلًا قوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١)

(أكثر) أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فرارًا من المحال العقلي الذي يُفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله، فتكون تسليمًا بثبوت المثل له سبحانه، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه؛ لأن السالبة - كما يقول علماء المنطق - تصدق بعدم الموضوع أو[٢٥] لأن النفي - كما يقول علماء النحو - قد يوجه إلى المقيد وقيده جميعًا تقول: «ليس لفلان ولد يعاونه» إذا لم يكن له ولد قط أو كان له ولد لا يعاونه وتقول: «ليس محمد أخًا لعليّ» إذا كان أخًا لغير علي أو لم يكن أخًا لأحد.

---

(٢٤) قرأ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ (إبراهيم: ٢٤) وقال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها لمثل المسلم. فحدثوني ما هي؟» فخفي على القوم علمها وجعلوا يذكرون أنواعا من شجر البادية. وفهم ابن عمر أنها النخلة. وكان عاشر عشرة هو أحدثهم سنا، وفيهم أبو بكر وعمر. فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هي النخلة». الحديث رواه الشيخان. وفي القرآن: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

(٢٥) هذا الترديد مبني على اعتبار مضمون الجملة أو منطوقها فعلى الأول يقع المثل موضوعًا، لأنها في قوة قولنا: «مثله ليس له مثل» وعلى الثاني يبقى في المحمول لأنه واقع في خبر ليس.

(وقليــل منهم) من ذهب إلى أنــه لا بأس ببقائها على أصلها ؛ إذ رأى أنهــا لا تــؤدي إلى ذلك المحال لا نصًا ولا احتمالاً لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضًا .

وذلــك أنــه لو كان هناك مثل لله لكان لهــذا المثل مثل قطعًا وهو الإله الحق نفســه ، فإن كل متماثلين يعد كلاهما مثلاً لصاحبه وإذن لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل وهو المطلوب .

وقصــارى هذا التوجيــه - لو تأملته - أنه مصحــح لا مرجح ، أي أنــه ينفــي الضرر عن هذا الحــرف ، ولكنه لا يثبــت فائدته ولا يبين مسيس الحاجة إليه ؛ ألست ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه ســواء ، وأنه إن كان قد ازداد به شــيئًا فإنما ازداد شــيئًا من التكلف والدوران وضربًا من التعمية والتعقيد وهل سبيله إلا سبيل الذي أراد أن يقــول : « هذا فلان » فقــال : « هذا ابن أخت خالة فلان » ؟ فمآله إذن إلى القول بالزيادة التي يســترونها باســم التأكيد ، ذلك الاسم الذي لا تعرف له مســمى هاهنا ؛ فــإن تأكيد المماثلة ليس مقصودًا البتة ، وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان .

ولو رجعت إلى نفسك قليلاً لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظًا بقوة دلالته قائمًا بقسط جليل من المعنى المقصود في جملته ، وأنه لو ســقط منها لســقطت معه دعامة المعنى أو لتهدم ركن من أركانه ونحن نبين لك هذا من طريقين أحدهما أدق مسلكًا من الآخر :

(الطريــق الأول) وهو أدنى الطريقين إلــى فهم الجمهور ، أنه لو قيل : « ليس مثله شــيء » لكان ذلك نفيًا للمثل المكافئ ، وهو المثل التام المماثلة فحسب ؛ إذ إن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم مــن لفظ المثل عنــد إطلاقه وإذن لدب إلى النفس دبيب الوســاوس والأوهــام أن لعل هنالك رتبة لا تضــارع رتبة الألوهية ولكنها تليها ،

وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو الكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن والأوثان والكهان فيكون لهم بالإله الحق شبه ما في قدرته أو علمه، وشرك ما في خلقه أو أمره... فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل: ليس هناك شيئ يشبه أن يكون مثلا لله، فضلا عن أن يكون مثلا له على الحقيقة وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى، على حد قوله تعالى:

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾

(الإسراء: ٢٣)

نهيًا عن يسير الأذى صريحًا، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى.

(الطريق الثاني) وهو أدقهما مسلكا، أن المقصود الأوّلي من هذه الجملة وهو نفي الشبيه وإن كان يكفي لأدائه أن يقال: «ليس كالله شيء» أو «ليس مثله شيء» لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمي إليه الآية الكريمة، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم تريد في الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حجته وطريق برهانه العقلي.

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ نقيصة في خلقه فقلت «فلان لا يكذب ولا يبخل» أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها فإذا زدت فيه كلمة فقلت: «مثل فلان لا يكذب ولا يبخل» لم تكن بذلك مشيرًا إلى شخص آخر يماثله مبرأ من تلك النقائص، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك؛ لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم.

على هذا المنهج البليغ وضحت الآية الحكيمة أن: «مثله تعالى لا يكون له مثل» أي أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك

المثـل الأعلى لا يمكن أن يكون له شـبيه ولا يتسـع الوجود لاثنين من جنسـه، فلا جرم جيء فيها بلفظين كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة؛ ليقوم أحدهما ركنًا في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهانًا فالتشـبيه المدلول عليه (بالكاف) لما تصـوب إليه النفي تأدى به أصل التوحيد المطلـوب؛ ولفظ (المثل) المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب.

واعلـم أن البرهان الذي ترشـد إليه الآية على هـذا الوجه برهان طريـف في إثبات وحدة الصانع لا نعلم أحـدًا من علماء الكلام حام حوله؛ فكل براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العملية حسبما أرشد إليه قوله تعالى:

﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[٢٦]

(الأنبياء: ٢٢)

---

(٢٦) ونحـن نلخص لك هنا وجـوه استدلالهم في نسق واحد، لتتبين أنها كلها قائمة علـى أساس المعنى المستنبط من هذه الآية، وهو أن تعدد الآلهة المستجمعة لشرائط الإلهيـة يقتضي (إما) عدم وجود شيء من المخلوقات، وذلك هو فسادها في آن الإيجاد (وإما) وجودها على وجه التفاوت والاختلاف المؤدي إلى فسادها غب الإيجاد.
ذلـك أنه (لو) توجهـت إرادة الإلهين إلى شيء واحد لتعذر عليهمـا إحداثه، لاستحالة صدور أثر واحد عن مؤثرين والقول بصدوره عن قدرة أحدهما مع استوائهما في القدرة وفي توجه القصد ترجيح بلا مرجح و(لو) توجهت إرادة أحدهما إلى شيء وإرادة الآخر إلى نقيضه لم يمكن إحداثهما، وإلا لاجتمع النقيضان، وإحداث أحدهما دون الآخر يلزمه الرجحـان المذكور و(لو) توجهـت إرادة أحدهما إلى بعض الخلق والآخر إلى بعضه إذن لذهـب كل إله بما خلق، ولكان هنا عالمان مختلفا النظام فلا يلبث أن يطغى بعضهما علـى بعض حتى يتماحقـا وكل أولئك باطل بالمشاهدة، إذ نـرى العالم قد وجد غير فاسد واستمر غير فاسد، ونـراه بجميع أجزائه وعلى اختلاف عناصره وأوضاعه علوًا وسفـلا وخيرًا وشرًا يؤدي وظيفة جسم واحد تتعاون أعضاؤه بوظائفها المختلفة على تحصيـل غرض واحد وهذه الوحدة في نظام الأفعـال دليل على وحدة الفاعل المنظم لها جل شأنه.

أما آية الشورى المذكورة فإنها ناظرة إلى معنى وراء ذلك ينقض فرض التعدد من أساسه، ويقرر استحالته الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار فكأننا بها تقول لنا: إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها: كلا، فإن الذي يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافي الناقص أما الكمال التام المطلق الذي هو قوام معنى الإلهية فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والاثنينية؛ لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدمًا على كل شيء وإنشاء لكل شيء:

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

(فاطر: ١)

وحققت سلطانًا على كل شيء وعلوًا فوق كل شيء:

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

(الشورى: ١٢)

فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت؛ إذ تجعل كل واحد منهما سابقًا مسبوقًا، ومنشئًا منشأً ومستعليًا مستعلى عليه أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما؛ إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقًا ولا مستعليًا فأنى يكون كل منهما إلهًا وللإله المثل الأعلى؟!

أرأيت كم أفدنا من هذه (الكاف) وجوهًا من المعاني كلها شافٍ كافٍ؟

فاحفظ هذا المثال وتعرف به دقة الميزان الذي وضع عليه النظم الحكيم حرفًا حرفًا.

***

(وبعد) فإن سر الإيجاز في القرآن لا يقف عند الحد الذي أشرنا

إليــه مــن اجتناب الحشــو والفضول بتــة ، وانتقاء الألفــاظ الجامعة المانعة التي هــي – بطبيعتها اللغوية – أتم تحديدًا للغرض ، وأعظم اتساعًا لمعانيه المناسبة ، لا بل إنه كثيرًا ما يسلك في إيجازه سبيلًا أعز وأعجب .

فلقد تراه يعمد – بعد حذف فضول الكلام وزوائده – إلى حذف شــيء من أصوله وأركانــه التي لا يتم الكلام في العــادة بدونها ، ولا يســتقيم المعنى إلا بها . ولقد يتناول بهــذا الحذف كلمات وجملًا كثيــرة متلاحقــة ومتفرقــة في القطعــة الواحدة ، ثم تــراه في الوقت نفســه يســتثمر تلك البقيــة الباقية من اللفظ في تأديــة المعنى كله بجــلاء ووضوح ، وفي طــلاوة وعذوبة حتى يخيل إليك من ســهولة مسلك[٢٧] المعنى في لفظه أن لفظه أوسع منه قليلا .

فــإذا ما طلبت ســر ذلك رأيته قــد أودع معنى تلــك الكلمات أو الجمــل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك ، ثم أدار الأســلوب إدارة عجيبة وأمر عليها جندرة البيان بيد صَنَاع ، فأحكم بها خلقه وسواه ثــم نفخ فيــه من روحه فإذا هو مصقول أملس ، وإذا هو نير مشــرق ، لا تشــعر النفس بمــا كان فيه من حذف وطــي ، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء ، إلا بعد تأمل وفحص دقيق .

لا نكران أن العرب كانت تعرف شــيئًا مــن الحذف في كلامها ، وترى ذلك من الفضيلة البيانية متى قامت الدلائل اللائحة على ذلك المحــذوف ، ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها فإذا قيل للعربي :

---

(٢٧) هــذه كلمة تمثيليــة أردنا بها أن نصور هذا الأثر البياني في مثال من الصناعات اليدويــة ذلك أنك ترى الخياط الماهر ينتفــع باليسير من البز فيجعل منه حلة حسنة مقــدرة على الجسم تقديرًا، بل إنها لسهولة مسلك الأعضاء فيها تحسبها ضافية بينما غيره لا يحسن الانتفاع بهذا القدر ولا بأكثر منه، فيخرجه لباسا ضيقا حرجا ذلك مثل صناعة الإيجاز القرآني بالقياس إلى كلام الناس.

أيـن أخـوك ؟ قال : في الدار وإذا قيل له : من في الدار ؟ قال : أخي ولو قال أخي في الدار ، لعد ذلك منه ضربًا من اللغو والحشو لكن الشأو الـذي بلغه القرآن في هذا الباب - كغيـره من أبواب البلاغة - ليس في متناول الألسنة والأقلام ، ولا في متناول الأماني والأحلام .

خذ لذلك مثلًا قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

(يونس : ١١)

الآية مسـوقة في شـأن منكري البعث الذين قـال لهم النبي : إني رسـول الله إليكـم ، وإنـي نذير لكم بين يـدي عذاب شـديد فقالوا متهكمين :

﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(الأنفال : ٣٢)

فلما لم يجبهم الله إلى اقتراحهم وأخر عنهم العذاب إلى سـاعته المحدودة ، أطغاهم طول الأمن والدعة والعافية الحاضرة ، حتى نسوا ريب الدهر وأمنوا مكر الله ، فجعلوا يسـتعجلون بالشر استعجالهم بالخير ، ويقولون : متى هو ، وما يحبسه لو كان آتيًا ؟

أراد القرآن أن يقول في جواب هذا الاستعجال : لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه ، كتعجيله لهم الخير إذا اسـتعجلوه ، لعجلـه لهؤلاء ولكنه قد جرت سـنته التي لا تتبدل بأن يمهل الظالمين ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمى وعلى وفق هذا النظام المسنون سيترك هؤلاء وشأنهم حتى يجيء وقتهم .

هـذا هـو الوضع الذي يوضع عليـه الكلام في ألسـنة الناس وفي

طبيعة اللغة لتأدية المعنى الإِجمالي الذي ترمي إليه الآية فانظر ماذا جرى..؟

(١) كان الكلام في وضعه العادي مؤلفًا من قضايا ثلاث: اثنتان منها بمثابة المقدمات والثالثة بمنزلة النتيجة، فاقتصر القرآن على الأولى والأخيرة أما الوسطى وهي الاستدراك - أو الاستثنائية كما يسميها علماء المنطق - فقد طواها طيًا.

(٢) وكانت المقدمة الأولى في وضعها الساذج تتألف من أربعة أطراف: تعجيل من الله في الخير وفي الشر، واستعجال من الناس كذلك ولكن الكلام هاهنا ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله، واستعجال واحد من الناس.

(٣) وكانت المقابلة في التشبيه بحسب الظاهر إنما هي بين تعجيل وتعجيل، أو بين استعجال واستعجال، فأدير الكلام في الآية على وجه غريب، وجعلت المشابهة بين تعجيل واستعجال.

وبعد هذا التصرف كله هل ترى كلامًا مبتورًا أو طريقًا ملتويًا؟ يتعثر فيه الفهم؟ أم ترى مغزى الآية لائحًا للعامة والخاصة، كالبدر ليس دونه سحاب؟

فارجع إلى طلب شيء من أسرار البيان، وقل: كيف جاء هذا الإِشراق مع هذا الاختصار البليغ؟

نقول:

(أما الأول) فإِنه لم يدع تلك المقدمة المطوية إلا بعد أن رفع لها علمين من جانبيها يدلان على مكانها، ويوحيان بها إلى النفس من وراء حجاب فقد أقام عن يمينها كلمة (لو) الامتناعية التي صدر بها المقدمة الأولى، دلالة على أنه لا يكون منه هذا التعجيل، وعن يسارها حرف التفريع الذي صدر به النتيجة في قوله (فنذر) لكي

ينم على أن لهذا الفرع أصلًا من جنسه يقال فيه : ولكن شأنه أن يذر الناس فلذلك يذر هؤلاء .

ولما كانت الفاء وحدها ليست نصًا في المطلوب ؛ لأنها كما تكون للتفريع تكون لمجرد العطف - فربما اتصل القارئ عاطفًا بها على جزاء الشرط قبلها ، من قبل أن يتبين له فساد المعنى لو عطف - لم يكتف بالفاء ، بل عززها بقوتين أخريين ، إذ حول صيغة النتيجة من الماضي إلى المضارع ، ثم من الغيبة إلى التكلم ، ليكون هذا الانقطاع اللفظي بينها وبين ما قبلها إيذانًا بانقطاعها عنه معنى ، وإذنًا بالوقوف دونها ، حتى لا تقع النفس لحظة ما في أدنى اضطراب أو لبس . ذلك إلى ما في هذا التحويل من الافتنان في الأسلوب تجديدًا لنشاط السامع ، ومن إلقاء الرعب في القلوب بصدور نطق الوعيد والاستدراج على لسان الجبروت الملكي نفسه .

(أما الثاني) فإنه لما حذف طرفين من الأطراف الأربعة لم يحذفهما من جنس واحد ، بل أبقى من كل زوجين واحدًا هو نظير ما حذفه من صاحبه ، لينبه بالمذكور على المحذوف فكانت كلمة (التعجيل) منبهة على نظيرتها في المشبه به ، وكلمة (الاستعجال) منبهة على مقابلتها في المشبه .

(أما الثالث) فإنه نبه به على معنى هو غاية في اللطف ، وهو سر الإمهال ، وحكمة عدم التعجيل من الله ذلك بأنه صور هذا التعجيل المفروض بصورة تشبه التماس الطالب وحرصه الشديد على إرضاء شهوته وسد حاجته الملحة التي تبعثه على استعجاله ، لاسيما إذا كان يطلب الخير لنفسه كأنه قيل : إنه تعالى لو عجل لهم ذلك لكان مثله بهذا التعجيل كمثل هؤلاء المستعجلين ، في استفزاز البواعث إياه وحاش لله .

هذا إلى تصرفات عجيبة أخرى :

(منها) أن كلمة (لو) بحسب وضعها وطبيعة معناها تتطلب أن يليها فعل ماض ولكن المطلوب هاهنا ليس هو نفي المضي فحسب بل بيان أن هذا الفعل خلاف سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً فلو أدى المعنى على هذا الوضع لطال الكلام، ولقيل: «لو كانت سنة الله المستمرة في خلقه أن يعجل... إلخ»: فانظر كيف اختصر الكلام في لفظ واحد بإخراج الفعل في صورة المضارع الدال على التكرار والاستمرار، واكتفى بوضع (لو) قرينة على أن ما بعدها ماض في معناه. وهكذا أدى الغرضين جميعًا في رفق ولين.

(ومنها) أنه كان مقتضى التطابق بين الشرط والجواب أن يوضع الجواب عدلاً له فيقال: (لعجله) ولكنه عدل إلى ما هو أفخم وأهول، إذ بين أنه لو عجل للناس الشر لعجل لهؤلاء منه نوعًا خاصًا هم له أهل، وهو العذاب المستأصل الذي تُقْضَى به آجالهم.

(ومنها) أنه كان مقتضى الظاهر في تقرير النتيجة أن يقال: (فنذرهم) أو (فنذر هؤلاء) ولكنه قال:

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾

(يونس: ١١)

تحصيلاً لغرضين مهمين، أحدهما التنبيه على أن منشأ هذا الاستعجال منهم هو عدم إيمانهم بالبعث، والثاني التنبيه على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة لهم ولأمثالهم.

(ومنها غير ذلك...)

قل لنا بربك: لو ظفرت في كلام البشر بواحدة من هذه التصرفات ففي أي أسلوب غير أسلوب القرآن تظفر بهذه المجموعة أو بما يدانيها، في هذا القدر أو في ضعفيه من الألفاظ؟

وإليك مثالًا آخر في المعنى نفسه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

(يونس: ٥٠، ٥١)

أي: نبئوني عن حالكم إن جاءكم العذاب بغتة في ليل أو نهار ماذا أنتم يومئذ صانعون؟ إنكم هنالك بين أمرين: فإما الإصرار على ما أنتم عليه الآن من تكذيب واستعجال، وإما الإيمان فأيهما تختارون؟ (أتستعجلون) بالعذاب يومئذ كما تستعجلون به اليوم؟ كلا فإنكم مجرمون، وكيف يتشوق المجرم لرؤية العذاب الذي إن جاء فهو لا محالة مواقعه؟ ثم نبئوني أي نوع منه تستعجلون؟ فإنه ليس نوعًا واحدًا بل هو ألوان وفنون (أم) أنتم اليوم تكذبون ثم إذا وقع بعد حين آمنتم به؟ ألا إنه لن ينفعكم يومئذ إيمانكم بعد أن ماطلتم وسوفتم حتى ضيعتم الفرصة وفاتكم وقت التدارك بل هنالك يقال لكم تنديما وتحسيرا: آلآن تؤمنون وقد كنتم به تكذبون وتستعجلون!!

هذا هو المعنى في ثوبه الطبيعي.

فانظر كم من كلمة وكم من جملة طويت في صدر الكلام وفي شقيه؟ وكيف أنها حين طويت لم يترك شيء منها إلا وقد جُعِلَ في اللفظ مصباحٌ يكشف عنه ومفتاحٌ يوصل إليه؟ فوضع استفهامين متقابلين في الكلام دل على أن هنالك استفهامًا جامعًا لهما مرددا بينهما، يقال فيه: ماذا تصنعون وأي الطريقين تسلكون؟ والاستفهام عن الصنف المستعجل به من العذاب دل على استفهام تمهيدي قبله عن حصول أصل الاستعجال وكلمة (المجرمون) دلت على استحالة هذا الشق من الترديد وكلمة (ثم) العاطفة دلت

علـى المعطـوف عليـه المطوي بينهـا وبين الهمـزة ولفظ الظرف (الآن) دل علـى عامله المقـدر وقس على ذلك سـائر المحذوفات حتى إن مدة الاسـتفهام الداخلة على هذا الظرف قد دلت على طول مُدّة التسـويف الذي منع من قبـول إيمانهم؛ لأنهم عُمّروا ما يتذكر فيه من تذكر.

فمن ذا الذي يستطيع أن يجري في هذا المضمار شَرَفًا أو شرفين، ثم لا تضطرب أنفاسه، ولا تكبو به ركائب البيان وأفراسه؟

اللهم إن من دون ذلك لَشُقَّة بعيدة وسفرًا غير قاصدٍ وإن في دون ذلك لحدًا للإعجاز.

***

- ٢ -

القرآن في سورة سورة منه

(الكثرة) و(الواحدة)

هـذا الذي حدثنـاك عنه من عظمـة الثروة المعنوية في أسـلوب القـرآن على وجـازة لفظه، يضاف إليه أمر آخر هـو زينة تلك الثروة وجمالهـا، ذلك هو تناسـق أوضاعهـا، وائتـلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها.

وأنت قد تعرف أن الكلام في الشأن الواحد إذا ساء نظمه انحلت وحـدة معناه فتفرق من أجزائهـا ما كان مجتمعًـا، وانفصل ما كان متصلًا، كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة إذا لم يكن سـطحها مستويا أليس الكلام هو مرآة المعنى؟ فلا بد إذن لإبراز تلك الوحدة الطبيعية (المعنوية) من إحكام هذه الوحدة الفنية (البيانية) وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان والتأليف بين عناصره حتى تتماسك وتتعانق أشد التماسك والتعانق.

ليـس ذلك بالأمـر الهين كما قـد يظنه الجاهل بهـذه الصناعة، بـل هو مطلب كبير (يحتاج) مهارة وحذقًـا ولطف حس في اختيار أحسـن المواقع لتلك الأجزاء: أيها أحق أن يُجعل أصلًا أو تكميلًا، وأيهـا أحق أن يبـدأ به أو يُختم أو يتبوأ مكانًا وسـطًا؟ (ثم يحتاج) مثل ذلك في اختيار أحسـن الطرق لمزجها: بالإسناد، أو بالتعليق، أو بالعطف، أو بغيرها هذا كله بعد التلطف في اختيار تلك الأجزاء أنفسـها، والاطمئنان علـى صلة كل منها بروح المعنـى وأنها نقية من الحشـو، قليلة الاسـتطراد، وأن أطرافها وأوسـاطها تستوي في

ترامِيها إلى الغرض، ويستوي هو في استهدافه لها، كما تستوي أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز ويستوي هو بالقياس إلى كل منها.

تلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالًا طبيعيًا فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها، المنفصلة بطبيعتها؟ كم من المهارة والحذق، بل كم من الاقتدار السحري يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة واتجاهاتها المتشعبة؟ حتى لا يكون الجمع بينها في الحديث كالجمع بين القلم والحذاء والمنشار والماء؛ بل حتى يكون لها مزاج واحد واتجاه واحد، وحتى يكون عن وحداتها الصغرى وحدة جامعة أخرى.

إنه من أجل عزة هذا المطلب نرى البلغاء وإن أحسنوا وأجادوا إلى حد ما في غرض غرض، كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كلا أو جلا (فالشعراء) حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعان عدة، أكثر ما يجيئون بها أشتاتًا لا يلوي بعضها على بعض، وقليلا ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض، كما في الانتقال من النسيب إلى المدح (والكُتَّاب) ربما استعانوا على سد تلك الثغرات باستعمال أدوات التنبيه أو الحديث عن النفس، كقولهم: ألا وإن... هذا ولكن... بقي علينا... ولننتقل... نعود، قلنا... وسنقول.

هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد فكيف لو قد جيء بها في ظروف مختلفة وأزمان متطاولة؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعًا، والهوة بينها أعظم اتساعًا؟

فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة

منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلم إلى النظر في السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز.

ألست تعلم أن ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبيل الإطالة والتزام جانب الإيجاز - بقدر ما يتسع له جمال اللغة - قد جعله هو أكثر الكلام افتنانًا، نعني أكثره تناولًا لشئون القول وأسرعه تنقلًا بينها[٢٨] من وصف، إلى قصص، إلى تشريع، إلى جدل، إلى

---

(٢٨) والأعجب أنه مع كونه أكثر الكلام افتنانًا وتنويعًا في الموضوعات، هو أكثره افتنانًا وتلوينًا في الأسلوب في الموضوع الواحد فهو لا يستمر طويلًا على نمط واحد من التعبير كما أنه لا يستمر طويلًا على هدف واحد من المعاني، ألا تراه كما يتنقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى يتنقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وإسمية وفعلية، ومضى وحضور واستقبال وتكلم وغيبية وخطاب، إلى غير ذلك من طرق الأداء على نحو من السرعة لا عهد لك بمثله ولا بما يقرب منه في كلام غيره قط، ومع هذه التحولات السريعة المستمرة التي هي مظنة الاختلاج والاضطراب، بل مظنة الكبوة والعثار، في داخل الموضوع أو في الخروج منه، تراه لا يضطرب ولا يتعثر، بل يحتفظ بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وجودة السبك حتى يصوغ من هذه الأفانين الكثيرة منظرًا مؤتلفا فأي امرئ يحسن العربية وينظر في نظم القرآن هذه النظرة ثم لا يرى فيه من أثر القدرة الباهرة سرًا من أسرار التحدي والإعجاز.

وأنت قد تسمع بعض المبتدئين في تذوق جمال القرآن والبحث عن منابع جماله يتساءلون ما سر تلك الحال النفسية التي يجدها تالي القرآن وسامعه من طراوة وتجدد في نشاطه مع كل مرحلة منه، حتى لا يعرف الملل مهما أمعن السير فيه؟ فنبئهم أن تلك الظاهرة العجيبة لها في القرآن منابع جمة قد أشير قبل إلى طرف منها «فيما تقدم لنا من الحديث عن خاصة القرآن الصوتية» وهذه الخاصة التي نشير إليها فيها منبع آخر أعمق... غير أنه لا يقدرها حق قدرها إلا من نظر في كلام البلغاء ووقف على مبلغ افتنانهم في أساليبهم، ومبلغ افتنانهم في أغراضهم، ثم جاء ليتدبر هاتين الناحيتين من نظم القرآن فهنالك يرى نفسه أمام نهاية لم يجاوز البلغاء بدايتها؛ إذ يرى أنه لا ينتقل فيه من خطوة إلى خطوة إلا استعرض في الخطوة التالية من مذاهب المعنى وألوان الأسلوب جديدًا إثر جديد فكيف يعرف الملل سبيلا إلى قلبه مع دوام=

ضروب شـتى، بل جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون، والشأن الواحد فيه تنطوي تحته شئون وشئون.

أولسـت تعلـم أن القـرآن – فـي جل أمـره – ما كان ينـزل بهذه المعانـي المختلفـة جملة واحدة، بـل كان يتنزل بها آحـادًا مفرقة على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وأن هذا الانفصال الزماني بينهـا، والاختـلاف الذاتي بيـن دواعيهـا، كان بطبيعته مسـتتبعًا لانفصـال الحديث عنها على ضرب من الاسـتقلال والاسـتئناف لا يدع بينها منزعًا للتواصل والترابط؟

ألـم يكن هذان السـببان قوتين متظاهرتين علـى تفكيك وحدة الـكلام وتقطيع أوصالـه إذا أريد نظم طائفة مـن تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة؟

خـذ بيدك بضعة متون كاملة مـن الحديث النبوي كان التحديث بها في أوقات مختلفة ـ وتناولت أغراضًا متباينة، أو خذ من كلام من شـئت من البلغاء بضعة أحاديث كذلك وحاول أن تجيء بها سـردًا لتجعل منها حديثًا واحدًا من غير أن تزيد بينها شيئًا أو تنقص شيئًا ثم انظر كيف تتناكر معانيها وتتنافر مبانيها في الأسماع والأفهام! وكيـف يبدو عليهـا من الترقيع والتلفيـق والمفارقة ما لا يبدو على القول الواحد المسترسل!



وسـبب ثالث كان أجدر أن يزيد نظم السـورة تفكيكًا ووحدتها

= هــذه النظرية والتجديد؟ كل امرئ يستطيع أن يجـرب نفسه حين يطول به الوقوف أمــام منظر واحد جميل هل يجـد لديه من هزة الاستحسان في هذا الاستمرار ما يجده لو اعترض سلسلة من المناظر الرائعة قد صنفت فيها ضروب الفوائد والمتع، ثم جعلت تمر به منوعة في أبدع تنسيق وأحسن تقويم؟ اللـهم، لا. فذلك كذلك.

تمزيقًا، ذلك هو الطريق التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض، وفي تأليف وحدات السور من تلك النجوم وإنها لطريقة طريفة سنريك فيها العجيبة الثالثة الكبرى التي خرجت بهذا التأليف القرآني عن طبيعة التأليف الإنساني، فتعال وانظر!

انظر إلى الإنسان حين يزاول صناعة ما من صناعاته التركيبية. ألا تراه يبدأ عمله دائمًا بتعرف أجزاء المركب ومقوماته، والوقوف على عناصره ومتمماته، قبل أن يبت الحكم في تحديد موقع كل جزء منها؟ هاتان مرحلتان تتنزل الثانية منهما منزلة الصورة من مادتها فلا جرم أن عكس القضية فيهما لا يكون إلا سيرًا بالعقل البشري في غير سبيله، وإدلاجًا به في مزلة لا قرار للإقدام عليها، ولا هدى للسالك فيها. وهل رأيت أحدًا سلك هذه السبيل المؤتفكة ثم استقام له الأمر عليها إلى نهايته[٢٩]؟

بل انظر إلى الإنسان حين يأخذ في ترتيب أجزاء المركب بعد جمعها. ألا تراه خاضعًا لسنة السير الطبيعي التي يخضع لها كل

(٢٩) نقول: هل رأيت عاقلا تعجل بالقضاء في تحديد الموقع لجزء جزء من صنعته قبل أن يحيط بسائر أجزائها علمًا؟ وهل تراه لو فعل يكون قضاؤه في هذا الترتيب قضاء مبرمًا؟ ثم هل تراه لو أصر على هذا الترتيب يتم له ما يشتهي لصنعته من نظام محكم؟ كلا. إن العاقل لو قام بهذه التجربة في بعض الأجزاء نزولا على البديهة الحاضرة فإنما يتخذها لعلة وقتية، ريثما يبدو له عنصر آخر أحق بهذه الرتبة أو تلك، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأول ليقصيه عن مكانه قليلا أو كثيرًا، أو ليفصله عن هذه المجموعة إلى مجموعة أخرى، أو ليجعله كلا قائما برأسه.. وهكذا لا يزال يقلب وجوه الرأي في نظام تلك المواد، حتى إذا ما فرغ منها جمعًا وتحصيلا، وانكشفت له جملة وتفصيلا، فهنالك فقط يستطيع أن يقر كل جزء في مستقره الأخير وأن يعطي المركب صيغته النهائية. وكل ترتيب تأخذه الآحاد قبل ذلك فإنه لا يجمعها إلا تلفيقًا، ولا يعطيها إلا صورة شوهاء وكذلك كل نظام أقيم على غير أساس العلم المفصل بأجزاء المنظوم فأحرى به أن يكون مثالا للضعف والاختلال وإن بقي اليوم قائمًا لم يلبث أن ينهار غدًا.

سائر إلى غرض ما حسي أو عقلي ؟ فهو إن قطع سبيله خطوات لم يستطع أن يجتاز أخراها قبل أولاها ، وإن صعد فيه درجات لم يستطع أن يؤخر أسفلها عن أعلاها .

تلك حدود رسمتها قوانين الفطرة العامة ، فلا يستطيع أحد أن يتخطاها ، سواء في صناعاته المادية أو المعنوية ؛ فالبناء والحائك والكاتب والشاعر في هذه الحدود سواء .

ونضرب لك مثلاً :

قدر في نفسك أن رجلًا نزل واديًا فسيحًا ليس عليه بنيان قائم ، وليس به شيء من مواد البناء وأنقاضه ، فما لبث أن أحس برجفة أرضية أو عاصفة سماوية ، وإذا قمة الجبل تنصدع قليلاً فتلقي بجانبه صخرًا أو بضعة صخور . . . ثم تمضي فترة طويلة أو قصيرة ، وإذا هزة ثانية أو ثالثة تلقي إليه شظيات من الحديد والحمم ، أو نثارات من الفضة والذهب . . . أترى أن هذا الرجل أو أن أحدًا من العقلاء يستطيع منذ اللحظات الأولى أن يضع تصميمه على إقامة مدينة جامعة من تلك المواد المتناثرة ومما عساه أن يجيء من أمثالها ؟ وأن يبدأ بالعمل في مهمة التخطيط والبنيان ؟ فما يدريه لعل هذه الظواهر لا تتكرر أمامه نزلة أخرى ، ثم ما يدريه أنها إن عادت كم مرة تعود ، وما نوع المادة التي تتساقط معها في كل مرة ، وكم عدة القطع في كل مادة من هذه المواد ، وكم عدة الأبنية التي يمكن إقامتها منها ، وما النظام الهندسي الخاص بكل بناء : سعة وارتفاعًا ونقشًا وزُخْرُفًا ، وما ذرع الفضاء الذي ستشغله هذه الأبنية جملة ؟

في هذا الجو المملوء غموضًا وإبهامًا لا يجرؤ عاقل أن يغامر بتصميمه في بناء كوخ حقير ، فضلًا عن بلد كبير ، فضلًا عن أن

يَهُب من فـوره لإنفاذ عزمه فيمضي في مهمة البناء منذ وصلت إليه تلك اللبنات الأولى.

ولئن افترضت إنسانًا غامر هذه المغامرة، وأن المقادير سارعت فـي هواه، وأسـعفته بما شـاء من مـواد البناء الذي تخيلـه وتمناه، أتـراه يعمـد إلى مخاطرة أخـرى، فيتخذ له في البناء أسـلوبًا يراغم بـه قانون الطبيعة، بأن يؤلي على نفسـه ألا يـدع لبنة تصل إلى يديه إلا أنزلهـا - في سـاعة وصولهـا - منزلها الخليق بهـا حيث كان؟ ذلـك علـى حين أن تلـك اللبنات لم تتسـاقط إليه متجانسـة مرتبة علـى ترتيبها في وضعها المنتظر، بل جعلـت تتناثر خفافًا وثقالاً، مختلفـا ألوانهـا وأحجامها وعناصرهـا وطاقاتها، فربمـا وقعت له الزخارف والشـرفات، قبل أن تقع له بعض القواعد والسافات[٣٠]، وربما وقعت له على التوالي أجزاء ناقصة لتوضع في أماكن متفرقة، مـن أبنيـة متنائية، أفلا تراه إن ذهب يضع كل جزء سـاعة نزوله في موضعـه المعيـن لم يجد مناصًـا من أن يبدد أجزاء البنـاء هنا وهنا، على أبعاد غير متسـاوية ولا متناسـبة، فيقارب بينهـا طورًا ويباعد طـورًا، ويعلو بها تارة وينزل تارة أخـرى حتى لقد يبني أعلى البيت قبل أسفله ويمسك المحمول معلقًا بدون حامله.

فكيف يطيق بشـر كائنًـا من كان أن يضطلع بهـذه المهمة؟ ثم كيـف يمضـي قدمًا في هذا الأمـر إلى نهايته، فلا يعـود إلى جزء ما ليزيله عن موضعه الذي أحله فيه أول مرة، أو ليلتجئ فيه إلى كسـر أو نحـت أو حشـو أو دعامـة؟ ثم كيف تكـون عاقبة أمـره؟ إنه في الوقت الذي يضع فيه آخر لبنة على هذا المنهاج يرفع يده عن مدينة منسـقة ليس فيها قصـر ولا غرفة ولا لبنة ولا جـزء صغير ولا كبير

(٣٠) سافات البناء أي: مكونات البناء ... (المجلة).

إلا وقد نزل منزله الرصين الذي يرتضيه ذوق الفن، حتى لو تبدل واحد منها مكان غيره لاختل البنيان أو ساء النظام؟ أليس ذلك إن وقع يكون تحديًا للقدرة البشرية جمعاء؟

ألا فقد وقع مصداق هذا المثل في مسألتنا، وإليك البيان:

(أما) الرجل فهو هذا النبي الأمي صلوات الله عليه.

(وأما) المدينة الجامعة التي شرع في بنائها منذ وقعت له لبناتها الأولى فذلك الكتاب العزيز الذي أخذ هو منذ وصلت إليه باكورة رسائله يرتب أجزاءه ترتيب الواثق المطمئن إلى أنه سيكون له منها ديوان تام جامع.

(وأما) القصور، والغرفات، واللبنات، فهي أجزاء هذا الديوان: من السور، والنجوم، والآيات.

(وأما) تلك العوامل الفجائية التي جعلت تستنزل من مختلف معادن الجبال ما ركبت منه هذه القصور المشيدة فتلك هي الأحداث الكونية والاجتماعية، والمشكلات الدينية والدنيوية التي كانت تعترض الناس آنًا بعد آن في شئونهم العامة والخاصة، فكان يتقدم بها المؤمن منهم مستفتيًا ومسترشدًا، والمكذب مستشكلًا ومجادلًا، وكان على وفق ذلك يتنزل الكلام نجمًا فنجما، بمعان تختلف باختلاف تلك المناسبات والبواعث، وبمقادير تتفاوت قلة وكثرة، وعلى طرق تتنوع لينًا وشدة... ومن هذه النجوم المختلفة المتفرقة صارت تتألف تلك المجاميع المسماة بالسور، لا على أساس التجانس بين أجزاء كل مجموعة منها، بل على أن يأوي إلى الحظيرة الواحدة ما شئت من فصائل الجنس الواحد والأجناس المتخالفة (وأما) الطريق العجب الذي اتبع في تأليف تلك الأبنية من أجزائها – وهو السبب الثالث الذي رفع المسألة من حد العسر

إلــى حــد الإحالة – فهــو أن ذلك الــذي نزل عليه الذكــر لم يتربص بترتيــب نجومــه حتى كملــت نزولاً ، بــل لم يتريث بتأليف ســورة واحــدة منه حتى تمت فصــولاً ، بل كان كلما ألقيت إليه آية أو آيات أمــر بوضعها من فوره في مــكان مرتب من ســورة معينة ، على حين أن هــذه الآيات والســور لم تتخذ في ورودها التنزيلي ســبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي ، فكم من ســورة نزلت جميعًا أو أشــتاتًا فــي الفتــرات بين النجومِ من ســورة أخرى ، وكم من آية في الســورة الواحدة تقدمت فيها نزولاً وتأخرت ترتيبًا ، وكم من آية على عكس ذلك .

نعــم ، لقــد كان للنجوم القرآنيــة في تنزيلهــا وترتيبها ظاهرتان مختلفتان ، وسبيلان قلما يلتقيان . ولقد خلص لنا من بين اختلافهما أكبر العبر في أمر هذا النظم القرآني .

فلــو أنــك نظرت إلى هذه النجــوم عند تنزيلهــا ، ونظرت إلى ما مهد لها من أســبابها ، فرأيت كل نجــم رهينًا بنزول حاجة ملمة ، أو حدوث ســبب عــامٍ أو خاصٍ ، إذن لرأيــت في كل واحــد منها ذكرًا محدثًا لوقته ، وقولاً مرتجلاً عند باعثته ، لم يتقدم للنفس شــعور به قبل حدوث ســببه ، ولرأيت فيه كذلك كلًا قائمًا بنفســه لا يترســم نظامًا معينًا يجمعه وغيره في نسق واحد .

ولو أنك نظرت إليها في الوقت نفسه فرأيتها وقد أعد لكل نجم منها ســاعة نزوله سياج خاص يأوي إليه ســابقًا أو لا حقًا ، وحدد له مكان معين في داخل ذلك السياج متقدمًا أو متأخرًا [٣١] إذن لرأيت

(٣١) فــترى هذا النجم مثلا يؤمر به عند نزوله أن يوضع في ختام سورة كذا، والنجم الــذي بعده يؤمر به أن يجعل في أثناء تلــك السورة نفسها على رأس عدد محدود من آيها، وهذا يجعل صدرًا لسورة تأتي بعد حين، والذي يليه يأخذ جانبًا من سورة مضت منذ حين.. وهلم جرا.

مــن خلال هــذا التوزيع الفــوري المحدود أن هنالــك خطة تفصيلية شــاملة قد رســمت فيها مواقع النجوم كلها من قبــل نزولها، بل من قبل أن تخلق أســبابها، بل من قبل أن تبدأ الأطوار الممهدة لحدوث أســبابها وأن هذه الخطة التي رســمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بآكد العزم والتصميم: فما من نجم وضع في ســورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، وما من نجم جعلٍ في مكان ما من الســورة آخرًا أو أولًا، ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفًا ولا متحولًا.

وهنا تقف موقف الحيرة في أمرك، وتكاد تنكر ما تحت سمعك وبصرك، ثم ترجع إلى نفسك تسائلها عن وجه الجمع بين ما رأيت ومــا ترى: «أليس هــذا التنزيل قد ســمعته الآن جديــدًا وليد يومه، ووحيــدًا رهيــن ســببه، فمالي أراه ليــس جديدًا ولا وحيــدًا؟ لكأني بــه وبالقــرآن كله كان ظاهرًا على قلب هــذا الرجل قبل ظهوره على لســانه وكان على هذه الصورة مؤلفًا في صدره قبل أن يؤلفه ببيانه. وإلا فمــا باله يؤلــف هذا التأليف بين آحــاد لا تتداعى إلى الاجتماع بطبائعهــا؟ لماذا لم يذرها كما جاءت فــرادى منثورة؟ وهلا إذا أراد جمعها أدخلها كلها في مجموعة واحدة؟ أو هلا قسمها إلى مجاميع متســاوية أو متجانســة؟ ترى علــى أي قاعدة بنــي توزيعها وتحديد أوضاعها هكذا قبل تمامها أو تمام طائفة منها؟ هل عســى أن تكون هذه الأوضاع كلها جارية على محض المصادفة والاتفاق؟ كلا، فقد ظهــر في كل وضــع منها أنه مقصــود إليه بعينه، كمــا ظهر القصد فــي كل طائفــة أن تنتظم منها وحــدة محــدودة ذات ترتيب ومقدار بعينــه... أم هــل عســى أن تكــون هــذه الأوضــاع – وإن قصدت – ليســت وليدة تقدير سابق، وإنما هي تجربة اختبارية أثمرتها فكرة وقتيــة؟ كلا، فإن واضعهــا حين وضعها قد ضربهــا ضربة لازب ثم

لـــم يُكِرَّ عليهــا بتبديل ولا تحويل . فعلام إذن بنى ذلك القصد وهذا التصميم ؟» ولن يكون الجواب الذي تسمعه من نفسك لو أصاخت إلى بديهة العقل إلا أن تقول :

إنــه لا يجــرؤ في قــرارة الغيب علــى وضع هذه الخطــة المفصلة المصممــة إلا أحــد اثنيــن : جاهــل جاهل فــي حضيــض الجهل ، أو عالم عالــم فوق أطوار العقل . لا ثالث . (فأما) إن كان فرغ من نظام تأليفها وصورة تركيبها من قبل أن يســتحكم له العلم بأسباب ذلك ومقاصــده وأدباره وعواقبــه ، وإنما بنى أمره على الظن والتحســس وعلــى التخيل والتمني ، فذلك امرؤ بلغت به الجرأة على نفســه أن أعلــن مِلك مــا لا يملكه وادعى علم ما ستكشــف الأيام عن جهله ، ومــا عليك إلا أن تتربص به قليلًا لترى بطلان أمره وفســاد صنعته ، فهيهات أن يلد الجهل نظامًا جاريًا ، وإحكامًا باقيًا .

(وأمــا) إن كان قد فصلها على علم وبصــر ، وأعطى كل جزء منها موقعــه بميزان وقــدر ، فلا ريب أن ســيكون نظامها مثــال الإتقان وآية الجمــال ، ولكن واضعهــا إذن لا يمكن أن يكون هو هذا الإِنســان ، إلا أن يكون قد اســتمدها من أفق أعلى من أفق نفســه ، ومحيط أوســع من محيط علمه ، إذ أنى للإِنسان وهو هذا المحكوم بطبيعة الدهر أن يكون عليها متحكمًا ؟ أم كيف يتهيأ له وهو في جهله العتيد بمقدمات عمله أن يكــون بنتائجهــا التفصيلية عالمًا ؟ أفيكون بالشــيء الواحد جاهلًا وعالمًا معًا ؟ أم يكون من وجه واحد حاكمًا ومحكومًا معًا ؟

«وهل رأيت أو ســمعت أن أحدًا من الكتاب أو الشــعراء استطاع فــي مفتتح حياته الأدبية أن يحصي كل ما ســيجيء على لســانه من جيد الشــعر أو النثر في المناسبات المتنوعة إلى آخر عهده بالدنيا ، وأن يضــع مــن أول يوم منهاجًا لديوانه المنتظــر ، يفصله تفصيلًا لا

يقنـع فيه بتقدير أبوابه وفصوله حتـى يقدر لكل باب عدة ما يحويه مـن خطاب أو قصيد، ويحدد لكل واحد مـن هذين مكانًا معلومًا لا يسـتقدم عنه ولا يسـتأخر، حتى إذا جاء عند داعيته رده إلى مكانه غيـر متلبـث ولا متوقف، ثم ينجـح في هذه التجربـة نجاحًا مطردًا تنفـذ فيه أحكامه وتتحقق به أحلامه، فيسـتقيم له النسـق بين هذه المقطوعات كلها، من غير أن يقدم فيها شـيئا أو يؤخر شـيئًا، ومن غير أن يزيد بينها أو ينقص شيئًا؟

(لعمـري) لئـن صح هذا الفرض فـي أحد من البشـر لصح مثله في نبي القرآن، ولكن الإنسـان هو الإنسـان... ومن لم يحط علمًا بمـا سـيعترضه في دهره من بواعث القـول وفنونه فهو عن الإحاطة بنصـوص هذا القول أبعد، وهو عـن الإحاطة بمراتب هذه النصوص أشـد بعدًا. بل الإنسـان حين تحفزه باعثة القول وترد إليه سـانحته لا يعـدو فيهـا إحدى خطتين: فهو (إما) أن يدعها كما هي سـانحة منعزلة... وكذلك يفعل في أمثالها، حتى إذا بلغ الغاية رجع أدراجه فأخـذ فيها جمعًا وتفريقـًا، وتبويبًا وترتيبًا (وإما) أن يأخذ في ضم هـذه النصوص، ولاءً على وفق ورودها الأول فالأول. أما الثالثة وهي أن يجعلهـا هكذا عزيـن، ولا يزال يظاهرها من قريـب وبعيد، عن أيمانها وعن شـمائلها وفي خلالها، بهذه الطريقة المحددة، وبهذه الطريقـة المشـتتة المعقـدة، على أن يجعل المـكان الذي أحل كل سـانحة فيه مكانًا مسجلًا لا تحول عنه ولا تزول ثم يطمع أن يخرج لـه بتلـك الصنعة ديـوان كامل التقسـيم والتبويب، جيد التنسـيق والترتيب، مترابط متماسك في جملته وتفصيله كلمة كلمة وحرفا حرفا، فتلك أمنية لا يظفر المرء منها إلا بعكس ما تمنى.

●●●

ها أنت ذا قد عرفت نهج التأليف الإنساني في صنعة البيان وغير البيان ورأيت بعد ما بينه وبين نهج التأليف في نجوم القرآن وعرفت مـاذا كان يجـب أن يحدث في النظـم القرآني من جـراء هذا النهج العجيـب . في أسـباب ثلاثة[٣٢] من شـأنها ألا يسـتقيم بها للكلام طبع . ولا يلتئم له معها شمل .

فانظر الآن هل اسـتطاعت هذه الأسـباب علـى تضافرها أن تنال شيئا من استقامة النظم في السور المؤلفة على هذا النهج ؟

أما العرب الذين تحداهم القرآن بسـورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا في نظم سـورة منهـا مطمعًا لطامع ، بله مغمـز لغامز ، لكان لهم معه شأن غير شأنهم وهم هم .

وأمـا البلغـاء من بعدهم فما زلنا نسـمعهم يضربـون الأمثال في جودة السبك وإحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن إلى فن .

وأما أنت فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يـد وضع بنيانه ؟ وعلى أي عين صنـع نظامه ؟ حتى كان كما وصفه الله :

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾

(الزمر : ٢٨)

اعمـد إلى سـورة مـن تلك السـور التي تتنـاول أكثر مـن معنى واحـد ومـا أكثرهـا في القـرآن ، فهي جمهرتـه - وتنقـل بفكرتك معهـا مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصـر كرتين : كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها

(٣٢) عناصر معنوية مختلفة، ظروف زمانية منفصلة، أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة.

وتعانقــت؟ وكيــف ازدوجــت مقدماتهــا بنتائجها ووطــأت أولاها لأخراها؟

وأنــا لك زعيم بأنك لن تجد البتة فــي نظام معانيها أو مبانيها ما تعــرف به أكانت هذه الســورة قد نزلت في نجم واحــد أم في نجوم شــتى... ولسوف تحسب أن الســبع الطوال[٣٣] من سور القرآن قد نزلــت كل واحــدة منهــا دفعة، حتى يحدثــك التاريخ أنهــا كلها أو جلهــا[٣٤] قد نزلت نجومًا أو لتقولن إنهــا إن كانت بعد تنزيلها قد جمعــت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلهــا مفرقة عن جمع، كمثل بنيــان كان قائمًا على قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قــدرت أبعاده ورقمت لبناتــه، ثم فرق أنقاضًا فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصًا يشد بعضه بعضًا كهيئته أول مرة.

أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثًا من المعاني حشــيت حشوًا، وأوزاعًا من المباني جمعت عفوًا، فإذا هــي لو تدبرت بنية متماســكة قــد بنيت من المقاصــد الكلية على أســس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من

(٣٣) وإذا كانــت هذه السور على طولها وكــثرة نجومها لا يبدو عليها انفصال النظم، فمــا ظنك بما دونها إلى سور المفصل حيث جرى التنجيم حتى في بعض القصار منها، كالضحى، واقرأ، والماعون، التي نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين.

(٣٤) هــذا الترديد ناظر إلى اختــلاف المفسرين في سورة الأنعام ومذهب الجمهور أنها نزلــت جملة واحدة وقد روى الطبراني وغيره ذلك عــن ابن عباس موقوفًا عليه، وروي عــن أبي بن كعب مرفوعًا بسند فيه ضعف. على أنه لو صح ما ذهب إليه الجمهور في هذه السورة لكانت مــن جملة الشواهد على اتحاد طريقة النظم في المنجمات وغيرها لأن نظام الانتقال بين المعاني في سورة الأنعام مثله في السور المتفق على تنجيمها، سواء.

كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول : فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة : لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفًا.

ولماذا نقول : إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان : فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًا، كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية.

فيا ليت شعري : إذا كانت كافة الأجزاء والعناصر التي تتألف منها وحدة السور منوطة بأسباب لم تكن كلها واقعة ولا متوقعة، وكان لا بد لتمام هذه الوحدة من وقوع تلك الأسباب كلها في عصر نزول القرآن ليتناولها ببيانه، فما الذي أخضع دورة الفلك لنظام هذه الوحدات وجعل هذه النوازل تتوارد بأسرها في إبان التنزيل؟ لماذا لم يتفق في حادثة واحدة منها أن تخلفت عن عالم الوجود

يومئذ لينخرم هذا النظام فتجيء سورة من السور مبتورة في مفتتحها أو في مختتمها أو فيما بين ذلك ؟ أليست مطاوعة تلك الأحداث الكونية، ومعاونتها بدقة دائمًا لنظام هذه الوحدات البيانية، شاهدًا واضحًا على أن هذا القول وذاك الفعل كانا يجيئان من طريق واحدة، وأن الذي صدرت هذه الكلمات عن علمه، هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيئته ؟(٣٥)

بل ليت شعري لو أن هذا الإنسان الغريب الذي جاء القرآن على لسانه كان قد أحصى ما سوف يلده الزمان من مفاجآت الحوادث المستقبلة صغيرة وكبيرة في مدى دهره، ثم قدر ما سوف تتطلبه تلك النوازل من تعاليم الفرقان، فما علّمه النظام البياني الذي ستوضع عليه صيغة تلك التعاليم ؟ ثم ما علّمه أي هذه التعاليم سيكون قرينةً لهذا الجزء أو ذاك ؟ ليتأهب لتلك القرائن قبل ورودها فيودع في كل جزء ساعة نزوله عروة لائقة بقرينته المعينة، حتى إذا قدمت استمسكت بعروتها فازدوجت بقرينها ذلك الازدواج المحكم. ولماذا حين وردت كل قرينة وجدت مع قرينها جارًا لا يجور ولا يجار عليه، ووجدت بجانبه المكان الذي ينتظرها، لا ضيقًا فيزاحمها ويتبرم بها، ولا واسعًا فتنقطع الصلة بينهما، بل وجدته مقدرًا بمقدارها، حتى لا حاجة إلى الاستدراك على الماضي بمحو حرف، ولا بزيادة حرف، ولا بتبديل وضع، وحتى لا مجال هناك لقول «ليت...» ولا «لو أن..».

بل كيف عرف كل جزء من هذه الأجزاء أين مجموعته، وأين مستقرّه بينها في رأس أو صدر أو طرف : من قبل أن تتبين سائر الآحاد والفصائل... حتى إذا تم توزيع تلك الأجزاء المتفرقة،

---

(٣٥) قل كل من عند الله سبحانه، لا معقب لحكمه، ولا مبدل لكلمته.

والأشـلاء الممزقة، إذا السـتارُ يرتفع في كل سورة عن دمية حسناء كاملة الأعضاء متناسقة الحُلَى؟

أي تدبيـر محكم، وأي تقدير مبرم، وأي علم محيط لا يضل ولا ينسـى، ولا يتـردد ولا يتمكث، كان قد أعد لهـذه المواد المبعثرة نظامهـا... حتى صيغ منهـا ذلك العقد النظيم، وسـرى بينها هذا المزاج العجيب؟

سـبحان الله! هل يمتري عاقل في أن هذا العلم البشري، وأن هذا الرأي الأُنُف البدائي الذي يقول في الشـيء: «لو استقبلت من أمري ما اسـتدبرت لقلت أو فعلت، ولقدمت أو أخـرت» لم يك أهلًا لأن يتقـدم الزمان ويسـبق الحـوادث بعجيب هذا التدبيـر؟ أليس ذلك وحده آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشـر، وإنما هو صنع العليم الخبير؟ بلى،

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾

(النساء: ٨٢)

●●●

أمـا إن طلبت شـاهدًا مـن العيان على صحـة ما أصَّلنـاه في هذا الفصـل من نظام الوحدات في السـور على كثرة أسـباب اختلافها، وأمـا إن أحببت أن نريك نموذجًا من السـور المنجمة كيف التأمتْ منهـا سلسـلة واحدة من الفكـر تتلاحق فيها الفصـول والحلقات، ونسـق واحد مـن البيان تتعانق فيـه الجمل والكلمات، فأيّ شـيء أكبر شـهادة وأصدق مثالًا من سـورة نعرضها عليك هي أطول سور القرآن كافة، وهي أكثرها جمعًا للمعاني المختلفة، وهي أكثرها في

التنزيل نجومًا ، وهي أبعدها في هذا التنجيم تراخيًا ، تلك هي سورة البقــرة التي جمعت بضعًــا وثمانين ومئتي آية ، وحــوتْ فيما وصل إلينا من أســباب نزولهــا نيفًا وثمانين نجمًــا ، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددًا[٣٦] .

●●●

واعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشــف لك عن جملة الوشــائج اللفظيــة والمعنوية التــي تربط أجزاء هذه الســورة الكريمة بعضها ببعض ، فتلك دراســة تفصيلية لها محلها من كتب التفســير . ذلك ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسبابًا ممدودة عن أيمانها وعن شــمائلها تمتّ بهــا إلى الجار ذي القربــي والجار الجنب ، في شبكة من العلائق يحار الناظر إلى خيوطها . مع أيها يتجه ؟ ولا يدري أيها هو الذي قصد بالقصد الأول .

وإنما نريد أن نعرض عليك الســورة عرضًا واحدًا نرســم به خط ســيرها إلى غايتهــا ، ونبرز به وحــدة نظامها المعنوي في جملتها ؛ لكــي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعتْ كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى .

بيــد أننا قبــل أن نأخذ فيمــا قصدنا إليه نحــب أن نقول « كلمة » ســاق الحديث إليها : وهي أن السياســة الرشــيدة في دراســة النسق القرآنــي تقضــي بأن يكون هذا النحو من الــدرس هو الخطوة الأولى فيــه ، فلا يتقدم الناظر : إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزءٍ

---

(٣٦) ففيهــا ذكر تحويل القبلة، وذكر صيام رمضــان، وذكر أول قتال وقع في الإسلام فنزل بسببه قوله تعالى:

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ (البقرة: ٢١٧)

وكل أولئــك كان نزولهن في أوائل السنة الثانية مــن الهجرة. وفيها تلك الآية الخاتمة التي نزلت في آخر السنة العاشرة من الهجرة وهي آخر آية نزلت من القرآن بإطلاق

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٨١)

وفيها ما بين ذلك.

جـزءٍ منه – وهي تلك الصـلات المبثوثة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعهـا – إلا بعـد أن يُحكِـم النظـر في السـورة كلهـا بإِحصاء أجزائهـا وضبط مقاصدها على وجه يكون مِعْوانًا له على السـير في تلـك التفاصيل عن بينة، فقديمًا قال الأئمة[٣٧]: «إن السـورة مهما تعـددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخـره بأوله، وأوله بآخره، ويترامـى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وإنه لا غنى لمتفهم نظم السـورة عن اسـتيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية».

وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بيـن الآيات حيـن يعكفون على بحث تلك الصـلات الجزئية بينها بنظر قريب إلـى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضّين أبصارهم عـن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السـورة في جملتها: فكم يجلـب هـذا النظر القاصر لصاحبه من جور عـن القصد؟ وكم ينأى بـه عن أروعِ نواحي الجمال فـي النظم، وهل يكون مثله في ذلك إلا كمثل امرئ عرضت عليه حلة موشـاة دقيقة الوشي ليتأمل نقوشها فجعـل ينظر فيها خيطًا خيطًـا ورقعة رقعة، لا يجاوزه ببصره موضع كفه. فلما رآها يتجاور فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود وخيوط أُخَـر مختلف ألوانهـا اختلافًا قريبًا أو بعيدًا لم يجد فيها من حسـن الجـوار بيـن اللـون واللون مـا يروقه ويونقـه. ولكنه لـو مد بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشـها لرأى من حسـن التشاكل بين

---

(٣٧) كأبـي بكر النيسابوري، وفخر الدين الـرازي، وأبي بكر بن العربي وبرهان الدين البقاعي، وأبـي إسحاق الشاطبي وغيرهم. أما النص المذكور هنا فمستنبط من كلمات للشاطبـي في الموافقات، في المسألة الثالثة عشرة من الكلام على الأدلة تفصيلًا. وقد عرض فيها سورة المؤمنون عرضًا إجماليًا.

الجملة والجملة، ما لم يره بين الواحد والواحد، ولتبين له من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى ما لم يتبين له من قبل. حتى إذا ألقى على الحلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهر.

فكذلك ينبغي أن يصنع الناظر في تدبره لنظم السورة من سور القرآن.

«وكلمة أخرى» تمس إليها حاجة الباحث في النسق إذا أقبل على تلك المناسبات الموضعية بين أجزاء السورة: وهي أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية فحسب، كما ظنه بعض الباحثين في المناسبات فجعل فريق منهم يذهب في محاولة هذا النوع من الاتصال مذاهب من التكلف والتعسف. وفريق آخر متى لم يجد هذه الصلة من وجه قريب أسرع إلى القول بأن في الموضع اقتضابًا(٣٨) محضًا، جريًا على عادة العرب في الاقتضاب.

إلا أن هذا الرأي بشعبتيه لأوغل في الخطأ من سابقه(٣٩)، وإن

---

(٣٨) بل زعم بعضهم أن الاقتضاب هو الأصل في القرآن كله. نقل السيوطي في الإتقان في بحث المناسبة بين الآيات والسور، عن أبي العلاء محمد بن غانم أن القرآن إنما وقع على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم. وكذلك نُقل عن عز الدين بن عبد السلام أن النظر في مناسبة الآي لا يحسن إلا في القضية التي نزلت على سبب واحد، أما إذا اختلفتْ الأسباب فالربط بينها ضرب من التكلف؛ لأن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتَّى ربطُ بعضه ببعض.اهـ. وقد خالفهما الأئمة ووهَّموهما.

(٣٩) وهو تضييق دائرة البحث في المناسبات بالتماسها بين المعاني المتجاورة خاصة. فإذا أضيف إلى ذلك التزام طريق معين في المناسبة وهو أن تكون من قبيل التجانس المعنوي زادت المسألة ضيقًا وحرجًا؛ ولذلك أفضى هذا الرأي بأصحابه إلى أحد الطرفين المذمومين: التكلف أو الخروج.

الأخذ به على علاته في القرآن لغفلة شديدة عن مستوى البلاغة التي تميَّز بها القرآنُ عن سائر الكلام.

فلو أنَّ ذاهبًا ذهب يمحو تلك الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي ينتظمها القرآن في سورةٍ منه إذن لجرَّده من أولى خصائصه وهي أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالًا يرده إلى الإطالة المملّة. كيف وهو الحديث الذي لا يُمَلّ؟

ولو أنه - من أجل المحافظة على استقلال هذه المعاني - ذهب يفرّقها، ويقطع أرحامها، ويزيل التداعي المعنوي والنظمي من بينها. إذن لجرَّده من خاصته الأخرى، وهي أنه لا ينتقل في حديثه انتقالًا طفريًا يخرجه إلى حد المفارقات الصبيانية التي تجمع شتى الأحاديث على غير نظام. والتي لا تدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كلام وافتتاح كلام. كيف وهو القول الرصين المحكم؟

كلا، بل الحديث فيه كما علمت ذو شجون. ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قوامًا لائتلافها. وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو «العقدة» التي يُطلَب حلُّها في كل فن وصنعة جميلة، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات فإِنَّ تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراسًا وأشد عناء منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد.

وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أجلى مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو

التفريع، أو الاستشهاد أو الاستنباط، أو التكميل أو الاحتراس، إلى غير ذلك. وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي، أو تجاور شيئين في الوضع المكاني، دعامةً لاقترانهما في النظم، فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجًا وما هو بخروج، وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني. فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها، رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر إما بحسن التخلص والتمهيد. وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع[٤٠]

---

(٤٠) ولقد يعرض في هذا الوجه اللغوي أسرار دقيقة لو سئل المرء البيانَ عن وجه الحسن فيها لعجز عن وصفه، بل لو سئل أين موضع الوصل منها لصعب عليه تحديده بقاعدة علمية. على أنه لو تناسى تلك الألقاب الاصطلاحية والأسئلة الفضولية وخلى نفسه ووجدانها ثم اتصل بهذه المواضع تلاوة أو استماعًا لما شعر بينها بشيء من الخروج أو الانتقال ينبو عنه الذوق أو يتعثر فيه السمع، بل يحس بينها بروح الاتصال وحلاوة الانتقال من قبل أن يهتدي لناحيةٍ محدودة أو علة معينة.

ومن طالت مزاولته لأساليب الكلام وتذوقه لطعومه حتى رسخت فيه ملكة التمييز بين الجيد منه والرديء وجد من نفسه أهلية هذا الحكم، إن لم يكن على نحو من الاستدلال المنطقي فعلى ضرب من الاستحسان الفقهي، ولا سيما إن كان ممن بقيتْ في عروقهم قطراتٌ من الدم العربي. وفي نفوسهم أثارة من الحاسة العربية فمن أخطأه وجدان هذا الحسن الإجمالي في موضع ما من القرآن فلا يلومنَّ إلا نفسَه ولا يعجلن بالحكم قبل أن يأخذ أهبته. وليذكرْ دائمًا أنه بمقياس ما يجده نحو أسلوب القرآن من استحسان أو توقف إنما يختبر ما في مزاجه اللغوي من صحة أو اعتلال، وما في دراسته اللغوية من نقص أو كمال، وأنه ليس بأذواق القاصرين من المولدين أمثاله تختبر لغة القرآن، كيف وقد درج أهلها الذين سجدوا لبلاغته وكان فيهم الحَكَم الذي تُرضَى حكومتُه. هذا، ولَكَمْ وقفَ علمُ التشريح عن إدراك سر الخلق في بعض الأعضاء الباطنة لعدم الاهتداء لوظيفتها. فهل وسع أحدًا من علماء التشريح أن يحكموا بخلوها عن الحكمة والفائدة؟ كلا فإنهم لما بهرتهم عجائب الصنعة في سائر أجزاء البدن لم يسعهم في القليل الذي جهلوه إلا أن يعترفوا على الجملة بأنَّ له البتة حكمةً لم يكشفها العلم ثم لا يلبث أن يكشفها لمن أعانته همة البحث وأيده التوفيق.

يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح به المتناكران.

وهـذه كلها وجوه حسـنة لو نُظر إليها بين آحـاد المعاني لأغنى بعضها عن بعض في إقامة النسق.

على أن روعة النظم القرآني كما علمتَ لا تقوم دائمًا على حسن التجـاور بين الآحاد، بل ربما تراه قد أتـمَّ طائفة من المعاني ثم عاد إلـى طائفة أخـرى تقابلها، فيكون حسـن الموقع فـي التجاور بين الطائفتين موجبًا لحسـن المقابلة بين الأوائل من كل منهما، أو بين الأواخر كذلك، لا بين الأول من هذه والآخر من تلك.

وملاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضعت عليه السـورة كلها كما وصيناك به من قبل. ونحن ذاكرون لك الآن نموذجًا منه لو وضعتَه نصب عينيك واحتذيته في سائر السور لكان ذلك نعمَ الدليلُ في دراستك... وبالله التوفيق.

نظام عقد المعاني في سورة البقرة

اعلــم أن هذه الســورة على طولهــا تتألف وحدتها مــن: مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة. على هذا الترتيب:

«المقدمة» في التعريف بشــأن هذا القرآن[٤١] وبيان أن ما فيه من الهدايــة قد بلغ حدًا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب ســليم. وإنما يُعرِض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض.

«المقصد الأول» في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

«المقصــد الثانــي» في دعوة أهــل الكتاب دعــوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

«المقصد الثالث» في عرض شرائع هذا الدين تفصيلًا.

«المقصــد الرابع» ذكر الــوازع والنازع الدينــي الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها.

«الخاتمــة» في التعريف بالذين اســتجابوا لهذه الدعوة الشــاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم.

رغبتنــا إليك أيها القــارئ الكريم حين تــدرس معنا تفاصيل هذا النســق أن تســتظهر بالمصحــف بين يديــك لتكون مــن الموقنين بصحة ما نشير إليه في كل خطوة.

المقدمة في عشرين آية «١ - ٢٠»

(١) بدأت الســورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة لا عهد للعرب

(٤١) عرفتَ في رأس البحث الأول أن لفظ القرآن يطلق على كله وعلى بعضه فالإشارة هنــا يصح أن تتوجه إلى القرآن جملــة، وأن تتوجه إلى سورة البقرة خاصة. وقد أردنا بقاءهــا على هذا الاحتمال اقتداء بالنص الكــريم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾؛ لأن الإشارة فيه على الاحتمال أيضًا.

بتصدير مثلها في الإنشاء والإنشاد، وإنما عهدوها من القراء الكاتبين في بدء تعليمهم التهجي للناشئين «ا. ل. م».

ومهما يكن من أمر المعنى الذي قصد إليه بهذه الأحرف، والسرّ الذي وضعت هنا من أجله، فإن تقديمها بين يدي الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها من شأنه أن يوقظ الأسماعَ ويوجّه القلوب لما يلي هذا الأسلوب الغريب.

(٢) وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة جمل ثلاث:

أما أولاهن فإعلانٌ للسامع أن ما سيُتلَى عليه الآن هو خير كتاب أخرج للناس، وأنه ليس في الوجود ما يصلح أن يسمى كتابًا بالقياس إليه «ذلك الكتاب».

وأما الأخريان فيدعمان هذا الحكم بالحجة والبرهان. أليس تفاضل الكتب إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل. أوليس كمال هذا الحق أن يكون نيرًا لا يثير شبهة؟ أوليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك أن يكون ذلك الحق مما تمس إليه حاجة الناس في إنارة السبيل وإقامة الدليل إذا ما اشتبهت عليهم السبل وتفرقت المسالك؟ فذلكم القرآن هو جماع هذه الفضائل الثلاث: فهو الحق المحض الذي لا باطل فيه، بل هو الحق اللائح الذي لا شبهةَ باطلٍ فيه، ثم هو بعد ذلك الهدى المبين الذي يُخرج الناس من الظلماتً إلى النور:

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾

(البقرة: ٢)

هكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث بعد تلك الأحرف الثلاثة موقع التنويه بالمقصود بعد التنبيه إليه.

وكذلك المربّي الصالح «يبدأ» خطابه الجليل الشأن باستنصات

الناس واسترعاء أسماعهم «ويثنّي» باتخاذ الوسائل المشوّقة التي تثير فيهم بواعث الإقبال على طلب الاستفادة.

(٣) أول ما تتشوف إليه النفس بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهدايته هو تعرف الأثر الذي سيحدثه في الناس ومقدار إجابتهم لدعوته. فمسَّت الحاجة إلى أن ينساق الحديثُ لبيان هذه الحقيقة العجيبة، وهي انقسام الناس في شأنه إلى فئات ثلاث: فئة تؤمن به، وأخرى كافرة، وثالثة مترددة حائرة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

فكيف تُرى ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس؟ أيجعل الحديث عنهم حديثًا مؤتنفًا ائتنافًا بحتًا؟ أم يسوقه مساق الاستدراك على ما قبله؟

شيء من ذلك لم يكن، ولكن انظر إليه وقد مزج الحديثين مزجًا عجيبًا يدع أدق الناس فطنة لتصريف وجوه القول لا يفطن لما حدث بينهما من الانتقال. ذلك أنه في أول الأمر لم يعرض لذكر الطائفتين الأخيرتين، بل أعرض عنهما كأن القرآن لم ينزل من أجلهما، ثم عمد إلى الطائفة الأولى فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه قائلًا: إنه

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾
(البقرة: ٢، ٣)

فكانت هذه «اللام الجارة» هي المعبرة السرية التي انزلق عليها الكلام وانصب انصبابًا واحدًا إلى نهاية الحديث عن المؤمنين.

(٤) ولقد كان قصر الانتفاع بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذي لا ريبة فيه - حَريًا في بادئ الرأي أن يُعَدَّ من المفارقات التي تثير في نفس السامع أشد

العجب ؛ إذ كيف تكون الحقائق القرآنية بهذه المرتبة من الوضوح ثم لا تنفذ إلى قلب كل من يسمعها ؟ !

ومن جهة أخرى فقد كان موقف هذا النبي الرحيم في جده البالغ في دعوة أمته وحرصه الشديد على هدايتهم ، مصورًا له في عين من يراه بصورة الطامع في إيمان الناس أجمعين الظان أن هذه الأمنية ستصبح في متناول يده متى أخذ في أسبابها العادية ، كأنه يرى أن ليس بينهم وبين هذه الهداية إلا أن يصل صوتُ القرآن إلى آذانهم فإذا هم مسلمون ، ذلك مع أن القرآن يكاد يحدد الآن مهمته ويقول إن الذي سينتفع بهداه إنما هم المتقون فكان هذا التحديد مظنة لأن يبتهل الرسول إلى ربه قائلًا : سبحانك اللهم ، ولم لا يهتدي به الناس أجمعون !

وجب إذن أن تقرر الحقيقة بصورة حاسمة لكل طماعية وتردد ، مريحة للنفس من طلب ما لا سبيل إليه ، وأن تبين مع ذلك الموانع الطبيعية من عموم هداية القرآن بأسلوب ينزّه القرآن نفسه عن شائبة القصور ، ويردّ النقص إلى قابلية القابل لا إلى فاعلية الفاعل . وهل يغضّ من مهارة الطبيب أن يُعرِض المريضُ عن تناول الدواء منه فيموت بجهله ؟ وهل يضير الشمسَ ألَّا يَنتفع بنورها العُمْي أو المتعامون ؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (البقرة : ٦)

هكذا انتقل الحديث عن المؤمنين الذين سبقت لهم الحسنى ، إلى الكافرين الذين حقت عليهم كلمة العذاب لا على وجه اقتران الحديثين في القصد من أول الأمر ، إذن لعُطف أحدهما على الآخر ، بل على وجه يُبنَى فيه بعض الكلام على بعض ، إجابةً لهذا السؤال

الــذي نطقــت به الحــال، وإزالــةً لذلك التعجــب الذي أثاره ســابقُ المقال، وهذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالاستئناف البياني.

(٥) وجرى الحديثُ عن هؤلاء إلى نهايته، فانضمَّ الشــكل إلى شــكله، وعُطفت الطائفة الثالثة علــى أختها؛ لأنهم في التجافي عن الهدى مشتركون، تتشابه قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(البقرة: ٨)

(٦) وارجع الآن قليًــلا إلى نظام الأحاديث عن الطوائف الثلاث لنــرى كيف تقابلت أوضاعها أتم التقابل، فقد اشــتمل الحديث في كل طائفــة على ثلاثة عناصر مرتبة على هذا النمط: وصف الحقيقة الواقعة، فبيان السبب فيها، فالإخبار عن نتيجتها المنتظرة.

«فحقيقــة» الطائفــة الأولــى أنهــم قوم حصَّلــوا فضيلــة التقوى بركنيهــا العلمــي والعملي «وســبب ذلــك» استمســاكهم بالهدى وإمدادهم بالتوفيق من ربهم «ومآل أمرهم» الفوز والفلاح.

«وحقيقــة» الطائفــة الثانيــة أنهــم مجــردون من أســاس التقوى وهــو الإيمان، وأنهــم مصرون على ذلك إصــرارًا لا ينفع معه إنذار، «والسبب» عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم فلهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها «وعاقبة أمرهم» العذاب العظيم.

«وحقيقة» الطائفة الثالثة صفة مركبة من ظاهر خير وباطن ســوء فهم يقولون بألسنتهم: إنهم مؤمنون، وليس في قلوبهم من الإيمان شــيء ولكل مــن الوصفين «ســبب» «وجــزاء» أما دعواهــم الإيمان فســببها قصد المخادعة، وجزاء الخداع عائد إليهم، وأما إســرارهم الكفر فسببه مرض قلوبهم، وجزاؤه زيادة المرض والعذاب الأليم.

وكمـا بين في الطائفـة الثانية أنهـا بلغتْ من الإِصـرار والغباوة مبلغًـا لا يُجـدِي معه الإِنــذار، بيَّن في الطائفة الثالثـة أنها بلغتْ من الغـرور والجهالـة المركَّبة مبلغًـا لا ينفع فيه نصـح الناصحين فهم المفسـدون ويزعمون أنهـم المصلحون، وهم السـفهاء ويزعمون أنهم الراشدون، ومَن لك بشفاء سقيم يعتقد أنه سليم؟

ثم كما ختم الكلامَ في شأن الطائفة الأولى بأن سجَّل لهم وصف الهدى والفلاح ختم الكلام في شـأن الطائفتين الأخريين بأن سـجل عليهما[٤٢] وصف الضلالة والخسران.

(٧) على أن هذه الأوصاف التحقيقية للطائفتين لم تكن وحدها لتشـفي النفس مـن العَجَب فـي أمرهـم، فالعهد بالنـاس أنهم إنما يختلفـون في الأمور الغامضة لا فـي الحقائق البينة، فاختلاف هؤلاء في شأن القرآن على وضوحه يُعَدُّ شاذًا عن العادات الجارية، محتاجًا

---

(٤٢) مضى جمهور المفسرين على أن قوله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ (البقرة: ١٦)

مشار به إلى أقرب الطائفتين في الذكر، وهم المنافقون، ولكن المروي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أنه راجع إلى الكفار مطلقًا، وهذا هو الذي عوَّلْنا عليه؛ لأنه أقعد في المعنـى وفي النظم، أما في المعنى فلأنه لا واسطـة بين الهدى والضلالة ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ وإذا كانـوا كلهـم من الهدى ناكبـين، وفي الضلالة مشتركين، فتخصيصـ الإشارة بالبعض مع إمكان رجوعهـا إلى الجميع صريحًا تخصيص بغير موجب، وأما في النظم فلأن تناولها للطائفتين يتم به حسن المقابلة بين الإشارتين في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى﴾ وقوله:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ (البقرة: ١٦)

ثـم به يتم جمـال الصنعة في تفريق الأقسام ثم جمعها، ثـم تفريقها ثم جمعها، فقد رأيتـه يفرق الطائفتين في أوصافهما الخاصة ثـم يجمعهما في هذا الوصف المشترك، وستراه يعـود إلى تفريقهما في ضرب الأمثال ثم يجمعهما مرة أخرى مع سائر العالم في النداء الآتي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (البقرة: ٢١)

إلى وصف تمثيلي يقرّبه من المُشَـاهَد المُحَسّ، حتى يطمئن القلب إلى إمكانه.

لذلك ضرب الله لكلتا[٤٣] الطائفتين مثلًا يناسبها.

فضرب مثلًا للمُصرّين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسيرون فـي ظلام الليل فقام فيهم رجل اسـتوقد لهم نـارًا يهتدون بضوئها،

---

(٤٣) لعلــك ترى هنا شيئًا مــن المخالفة لكلام المفسريــن، إذ جعلوا المثلين كليهما راجعين إلى المنافقين خاصــة، وجعلناهما موزعين على الطائفتين، نشرًا على ترتيب اللف (ضَرْبٌ من المحسنات البديعية) ولكنك إذا رجعتَ بنفسك إلى أجزاء المثلين فسترى معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده فهؤلاء القوم الذين

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٧، ١٨)

أليسوا هم أولئك القوم الذين

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ (البقرة: ٧)

وهــذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تقلب ولا تذبذب هل ترى فيها تصويرًا لألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال؟ إنك لا تجد هذه الصورة إلا في المثل الثاني حيث يتعاقب فيه الظلام والنور والوقوف والمسير، وكذلك ترى في المثل الثاني قومًا لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولو شاء لذهب، وهذا مناسب لقوله في المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ (البقرة: ١٠)

فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلي على القلوب والحواس.

نعــم يمكن تقرير كلام المفسرين على وجه صحيــح إذا ضممنا إليه ضميمة. ذلك بأن نقــول إن المثل الأول يصوّر حال المنافقــين في بواطنهم وهو الأمر الذي يشاركون فيه سائــر الكفار، والمثل الثاني يصور حالهــم في ظواهرهم، وهو الأمر الذي يتقلب عندهم بتقلب الدواعي؛ لأن تقلبهم إنما هو في الظاهر لا الباطن، غير أن هذه الدعوى أيضًا محل نظر؛ إذ ما يدرينا لعلَّ نوع الكفر الذي يبطنه المنافق نوع خاص يتقلب فيه قلبُه بالشك والتردد، وأن هذا الاضطراب الذي نشاهده على حركاته الظاهرة في أقواله وأعماله إنما هو صورة الاضطراب النفسي الذي يحس به هو في دخيلته بخلاف النوع الأول وهو كفر المجاهِرين فهو طبيعة واحدة مصمَّمة، حسبما تشهد به وحدة آثاره.

فلمـا أضـاءت مـا حوله لم يفتـح بعض القـوم أعينهم لهـذا الضوء الباهر، بل لأمرٍ ما سُلبوا نورَ أبصارهم وتعطلتْ سائر حواسِّهم عند هذه المفاجأة، فذلك مثل النور الذي طلع به محمد[٤٤] ﷺ في تلك

(٤٤) وهـذا أيضًا غير ما ذكـره المفسرون، فقد جعلوا مستوقـد النار مثلا «للمنافق الـذي تكلَّف النطقَ بكلمة الإسلام خداعًا، فلـم ينتفع بها إلا يسيرًا في دنياه، ثم قضى أجلـه وأفضى إلى عمله، فإذا هو في الظلمات والخسران المبين» هكذا اعتبروا الضمائر المجموعة في قوله:
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٧)
عائدة إلى «الذي استوقد» بمراعاة معناه، بعد أن عادت إليه الضمائر المفردة بمراعاة لفظه. ونحن لا نزعم بطلان هذا التأويل، ولا ننكر إساغة اللغة له ولكن الوجه الذي عرضناه هاهنا في شرح المثل يجمع إلى صحته العقلية واللغوية أنه مستنبط من النظم القرآني نفسـه ونحسبه مع ذلك أقرب لأسلوب القرآن وأليـق بجزالته فإن لم يكنه فليكن أحد الوجوه التي يحتملها القرآن.
أما كيف استنبطنا هذا المعنى من النظم فإليك بيانه:
لقد نظرنا إلى المثلين فرأينا الأسلوب فيهما يتجه اتجاهًا متوازيًا، إذ وجدنا في صدر كل منهما حديثًا عن شيء مفرد، وفي عَجُزِ كل منهما حديثًا عن جماعة، ثم نظرنا إلى المثل الثـاني فرأينا الضمير المجموع فيه ليس راجعًا إلى مرجع الضمير المفرد، بل هو راجع باتفـاق المفسرين إلى أمر مفهوم من فحـوى الكلام هو القوم الذين نزل عليهم الصيب «معلـوم أن هذه التشبيهات المركبة التي ينظر فيها إلى مقابلة المجموع بالمجموع لا يُعنَى فيها بالمقابلة اللفظية الأحادية لأبين ما قبل الكاف وما يليها على الترتيب، بل ربمـا يكون الاختلاف بينهما كما هنا أمرًا مطلوبًا للبلغاء في وجيز الكلام يقصدون به التنبيـه من أول الأمر على ما سيحدثون في التشبيه من طي وتقديم وتأخير، والتنبيه علـى أن المشبَّه به ليس هو مدخول الكاف وحده، وإنما هو قصة متعددة الفصول، هذا المدخول أحد فصولها، ذلـك ليبقى السامعُ محتفظًا بانتباهه وتشوقه إلى تمام الكلام الـذي به يظهر له التطابق بين طرفي التشبيه، وبه يمكنه ردّ كل شيء إلى شبهه - هذا الضرب في أسلوب القرآن كثير، منه قوله تعالى:
﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ (البقرة: ١٧١)
وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ (يونس: ٢٤)=

=وقوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (البقرة: ١٩)
حينئذ عدنا إلى المثل الأول فقلنا: هل عسى أن يكون هو أيضًا سائرًا على هذا النهج حسبما يرشد إليه تعادل الأسلوبين؟.. فيكون الضمير المجموع فيه ليس عائدًا إلى «الذي استوقد نارًا» بل إلى القوم الذين استوقدت النار من أجلهم أليس السامع متى انتهى إلى كلمة «ما حوله» يزداد شعورًا بأن هنالك قومًا مشبها بهم؟ إذ سرعان ما ينتقل الذهن من المكان إلى السكان.. هذه الخطوة الأولى لم تلبث أن لحقتها الخطوات التالية: وهي أن النور الذي ذهب الله به إذا كان هو نور أولئك القوم، ولم يكن هو ضوء النار التي استوقدها المستوقد فتلك النار إذن لم تُطفَأ ولم يذهب ضوْؤها فما يكون مضرب المثل بهذا الضياء الذي بقي هو وذهب غيره؟.. ألا يكون هو ضوء الهداية الحقيقية التي أبى الله إلا أن يتمها ولو كره الكافرون، ثم من يكون مضرب المثل بمستوقد النار؟.. ألا يكون هو الهادي الأعظم صلوات الله عليه.. فقد استوقد شعلة الهداية الإسلامية، أي عالج إيقادها أمام زوابع من الفتن وأعاصير من المقاومات العنيفة، فلما أوقدها وأضاءت ما حوله رغمت بها أنوف أعداء الحق، الذين أكل الجهل والحسد قلوبهم، فانطمست بصائرهم، وكانوا كلما ازدادت هي تألقًا وإشراقًا، ازدادوا هم ظلمة وانتكاسًا.
عند هذا الحدّ تمتْ أركان التشبيه، واستقام هذا المعنى الجديد على أنه احتمال يمكن فهم الآية عليه بحسب اللغة والعقل وبحسب معهود القرآن أيضًا في ضربه النور والضياء مثلًا للهدى والإيمان، والظلمة والعمى مثلًا للجهل والكفران، بيد أن اتفاق التفاسير التي بأيدينا على جعل مستوقد النار مثلًا للمنافقين جعلنا نتهيب تأدبًا أن نضربه مثلًا للرسول الأمين، من غير شاهدٍ يؤيد ذلك من الكتاب أو السنة.. وما برحت هذه المخالفة التي تحيك في الصدر وتبعد اطمئنان القلب إلى هذا المعنى حتى ظفرنا بشاهده الصريح الصحيح في حديث النبي عن نفسه، حيث يقول ﷺ: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراشُ وهذه الدوابُّ التي تقع في النار تقع فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها» رواه الشيخان. نعم التمثيل به في الحديث من وجه غير الوجه الذي في الآية، ولكن هذا لا يضير، إذ المثلُ الواحد يُضرَب لمعانٍ متعددةٍ باعتبارات مختلفة، والذي يعنينا إنما هو وقوع التمثيل به للنبي الكريم، وهو صريح في صدر الحديث كما نرى، فبذلك ازدادت النفس ركونًا إلى صحته.
وبعدُ فما بنا – عَلِمَ الله – حب الخلاف ولا شهوة الإغراب، ولكنها أمانة العلم والنصيحة لكتاب الله تعالى حملتنا على أن نقول فيه أحسن ما نعلم، ثم شجعتنا على أن نسجل بالقلم هذا الذي قلناه بالفم، لنعرضه في الطِّرس – أي الصحيفة – على أنظار القارئين، =

الأمة الأمية على فترة من الرسل، فتفتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين أَلِفوا العيشَ في ظلام الجاهلية، فلم يرفعوا له رأسًا بل نكسوا على رءوسهم ولم يفتحوا له عينًا بل خروا عليه صُمًا وعميانًا

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾

(فصلت: ٤٤)

وضرب مثلًا للمترددين المخادعين بقوم جادتهم السماء بغيث منهمر في ليلة ذات رعود وبروق، فأما الغيث فلم يُلقُوا له بالًا، ولم ينالوا منه نيلًا فلا شربوا منه قطرة ولا استنبتوا به ثمرة، ولا سَقوا به زرعًا ولا ضرعًا، وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هي مثار اهتمامهم، ومناط تفكيرهم؛ ولذلك جعلوا يترصدونها: ويدبرون أمورهم على وفقها، لابسين لكل حال لَبوسها سيرًا تارة، ووقوفًا تارة، واختفاء تارة أخرى.

ذلك مثل القرآن الذي أنزله الله غيثًا تحيا به القلوبُ، وتنبت به ثمرات الأخلاق الزكية والأعمال الصالحة، ثم ابتلى فيه المؤمنين بالجهاد والصبر وجعل لهم الأيامَ دُوَلًا بين السلم والحرب، وبين الغلب والنصر، فما كان حظ بعض الناس منه إلا أن لبسوا شعاره

=كما عرضناه في الدرس على أسماع الطالبين، لعل هؤلاء واجدون فيه من مواضع النقد والتمحيص ما لم يجده أولئك، وهذا الباب من أبواب البحث والاستنباط الذي لا يمس أصلًا من أصول الدين ولا يُحِلّ حرامًا أو يحرم حلالًا، لا يزال مفتوحًا لكل مسلم أعطاه الله فهمًا في كتابه، على شريطة القصد والأناة في سير العقل ومع الاستضاءة في هذا السير بمصباحين من اللغة والشرع، على الحدّ الذي وصفنا، والمنهج الذي رسمنا. وبالله التوفيق.

على جلودهم دون أن يشربوا حبه في قلوبهم أو يتذوقوا ما فيه من غذاء الأرواح والعقول، بل أهمتهم أنفسهم وشغلتهم حظوظهم العاجلة فحصروا كلَّ تفكيرهم فيما قد يحيط به من مغانم يمشون إليها، ومغارم يتقونها، أو مآزق تقفهم منه موقف الروية والانتظار، وهكذا ساروا في التدين به سيرًا متعرجًا متقلبًا مبنيًا على قاعدة الربح والخسر والسلامة الدنيوية.

فكانوا إذا رأوا عرَضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا وبرقت لهم «بروق» الأمل في الغنيمة ساروا مع المؤمنين جنبًا إلى جنب، وإذا دارت رحا الحرب وانقضت «صواعقها» منذرة بالموت والهزيمة أخذوا حذرهم وفروا من وجه العدو قائلين ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أو رجعوا من بعض الطريق قائلين ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمحوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة، بل اشتبهت عليهم الأمور وتلبَّد الجوُّ بالغيوم، فهنالك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون، ولكن يلزمون شقة الحياد ريثما تنقشع سحابة الشك:

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(النساء: ١٤١)

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ٧٢، ٧٣)

ذلـك أبدًا دأب المنافقين فـي كل أمرهم : إن توقعوا ربحًا عاجلًا التمسـوه في أي صف وجدوه ، وإن توقعوا أذى كذلك تنكروا للفئة التي ينالهم في سـبيلها شـيء من المكروه ، وإذا أظلم عليهم الأمر قامـوا بعيـدًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، أما الـذي يؤمن بالله واليوم الآخـر فإنَّ لـه قبلةً واحـدةً يولي وجهه شـطرها ، هي قبلـة الحق لا يخشى فيها لومة لائم .

وليس يبالي حين يقتل مسلمًا على أي جنب كان في الله مصرعه .

●●●

هنـا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآنَ بما هو أهله ، ووصفت متبعيه ومخالفيه كلًا بما يستحقه ، ولا مرية أن وصف هذه الطوائف جميعهـا راجع فـي المآل إلى الثنـاء على القرآن ، فإنَّ الشـيء الذي يكون متبعـوه هم أهل الهدى والفلاح ، ومخالفـوه هم أهل الضلالة والخسر لا يكون إلا حقًا واضحًا لا ريب فيه .

فمـا هو ذلك الحـق الذي لا يتبعه إلا مهتدٍ مفلحٌ ، ولا يُعرِض عنه إلا ضالٌّ خاسرٌ ؟ بل ما هو ذلك الحق الذي ضربت له الأمثال بالضياء الباهر والغيث الكثير ؟

لا شك أن هذا كله تشويق أي تشويق لسماع الحقائق التي يدعو القرآنُ الناسَ إليها ، فانظر على أي نحوٍ ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السـياق يقضي بأن يقال : إن هذه الحقائق هي أن يعبدوا ربهم وحده ويؤمنوا بكتابه ونبيه . . .إلخ ؛ جريًا على أسلوب الغيبة الذي جرى عليه في وصف الكتاب ، وفي وصف الناس ، ولكنه حوَّل مجرى الحديث من الإخبار والغيبة إلى النداء والمخاطبة قائلًا :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ٢١)

أتعرف شيئًا من سر هذا التحويل؟

إن ذلك الوصف الدقيق الذي وصف القرآنُ به الطوائفَ الثلاثَ «متقين وكافرين ومخادعين» قد نقلهم عند السامع من حال إلى حال، فبعد أن كانوا غُيَّبًا في مبدأ الحديث عنهم أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشافي حاضرين في خيال السامع كأنهم رأي عين، وفي مكان ينادَون منه فاستحقوا أن يوجَّه الحديثُ إليهم كما يوجَّه إلى الحاضرين في الحس والمشاهدة. هذا من الناحية العامة، وأما من الناحية الأخرى فإن هذه الأمثال البليغة التي ضُربتْ في شأن المعرضين خاصةً قد أبرزتهم أمام السامع في صورة محزنة تبعث في نفسه أقوى البواعث لنصحهم وتحذيرهم، حتى إنه لا يشفي صدره إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم: أن افتحوا أعينكم أيها القوم وتعالوا إلى طريق النجاة، وهكذا استعدت النفس أتمَّ استعدادٍ لسماع هذا النداء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا

ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(البقرة : ٢١ - ٢٥)

الآيات إلى آخر المقصد الأول .

***

المقصد الأول من مقاصد السورة : في خمس آيات (٢١ - ٢٥)

في هذه الآيات الخمس تسمع نداءً قويًا موجهًا إلى العالَم كله بثلاثة مطالب :

(١) أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئًا .

(٢) أن آمِنوا بكتابه الذي نزله على عبده .

(٣) أن اتقوا أليم عذابه ، وابتغوا جزيل ثوابه .

هـذه المطالب الثلاثة هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية تراها قد بُسطتْ مُرتَّبةً على ترتيبها الطبيعي من المبدأ ، إلى الواسطة إلى الغاية ، وترى كلَّ واحد من الركنين الأولين قد أقيم على أساس من البرهان العقلي القاطع لكل شبهة ، أما الركن الثالث فقد جيء به مجردًا عن هذا النوع من البرهان ، ولكنه نفخ فيه من روح الإلهاب وتحريك الوجدان بالتحذير والتبشير ما يسد في موضعه مسد البرهان .

على أنك إذا أنعمت النظر في هذا الركن وجدتَه في غِنًى عن برهان جديد بعد تقرر سابقيه ، إذ هو منهما بمنزلة النتيجة المنطقية من مقدماتها . أرأيت لو أن مَلِكا عظيمَ السلطان نافذ الحكم وجَّه إليك سفيرًا يحمل رسالةً منه ، وأيقنتَ أن الذي بيد السفير هو كتاب الملك المختوم بخاتمه ، أكان يُعوِزك برهانٌ جديدٌ لتحقيق ما يحويه الكتاب من عجيب الأنباء والنذر ، بعد ما وقر في نفسك من العلم بأنه كلامُ مَن إذا قال صدق وإذا وعد أنجز ؟

فكذلـك ترى الحديث هنا عن السـمعيات جيء بـه مفرَّعًا على مـا تقرر في أمر النبوّات، وبضرب من التخلص هو غاية في الحسـن والبراعة

﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٤)

●●●

عود على بدء: في أربع عشرة آية (٢٦ - ٣٩)

(١) بـدأ الكلام في السـورة - كما علمت - بوصف القرآن بما فيـه مـن الهدى إجمالاً: فـكان من الحق أن يعود إلـى وصف طريقة القـرآن في هـذه الهداية، ليقـول إنها هدايـة كاملة بالبيـان الوافي الشـامل لكل شـيء، فانظر كيف مهَّد لهذا الانتقـال تمهيدًا يتصل من أول السورة إلى هذا الموضع:

أمـا المقدمة فقـد وصف فيها الفرق الثلاث وصفًا شـافيًا ضرب للنـاس أمثالهـم، وحقق أن الذين كفـروا اتبعوا الباطـل، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم.

وأمـا المقصـود فقد بيَّن فيـه أن لله وحده المثـلَ الأعلى الذي لا يشـركه فيـه شـيء من الأنـداد، ثم وضـع فيـه الفيصل بيـن النبي والمتنبـي بتلك المعجزة العالمية التي لا يسـتطيع أحد من دون الله أن يأتي بمثلها، ثم ذكر مثل النار التي أعدت للكافرين، ومثل الجنة التي وُعد المتقون.

فتـراه قد تنـاول في هذه الأمثال ضروبًا شـتى من الحقائق علوية وسفلية مادية ومعنوية... حتى كانت نهاية الحديث أن عرض ما في الجنة من أنواع المتع واللذائذ الشـخصية والجنسية، تلك المعاني

التي قد يستحي المرء من ذكرها ، وقد يخالها الجاهلُ نابيةً عن سنن الخطاب الإلهي الأعظم ، غافلًا عن أنه الحق الذي لا يستحي من الحق ، وأنه الرحيم الذي يتنزل برحمته إلى مستوى العقول البشرية فيبيّن لهم كلَّ ما يحتاجون إلى بيانه مما يحبون أو يكرهون ، ومما يرجون أو يحذرون .

وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج المتفاوتة إلى استنباط القاعدة الكلية منها ، ببيان أن هذه هي طريقة القرآن في هدايته ، فهو يضرب الأمثال كلها ويبين الحقائق حلوها ومرها ، واضعًا كل شيء في موضعه ، مسميًا له باسمه ، لا يبالي أن يتناول في بيانه جلائل الأمور أو محقراتها

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

(البقرة : ٢٦)

حقًا ! إن شأن هذا الكتاب في تفصيل الحق والباطل والضار والنافع شأن كتاب الأعمال في تفصيل الحسنات والسيئات ، كلاهما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وكما أن وصف القرآن بالهدى إجمالًا قد جر هناك إلى ذكر انقسام الناس في قبول هدايته ، وإلى النعي على من أعرض عنه ، كذلك وصْف طريقته في الهداية قد جرها هنا إلى مثل هذا التقسيم :

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾

(البقرة : ٢٦)

وإلى النعي على الضالين بذكر مساوئهم وتفصيل نقائصهم :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(البقرة : ٢٦)

وكما أن بيان أوصافهم هناك قد جلاهم أمام السامع في صورة

تحرك داعيته لسماع ندائهم بالنصح والتعليم، كذلك بيان أوصافهم هنا قد استفز النفوسَ إلى سماع مخاطبتهم بالتعجيب والإنكار:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٨)

(٢) وكذلك عاد الكلام إلى المقصد الأول بأركانه الثلاثة، ولكن في ثوب جديد: (أما في الركن الأول) فقد سمعته هناك يأمر بعبادة الله، وتسمعه هنا ينهى عن الكفر بالله.

وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة، وهنا يذكرهم بها مفصلة متممة، وهناك عرَّفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم، وهنا يعرفهم بذلك في شيء من التفصيل.

(وأما في الركن الثاني) فقد ذكر هناك نبوة هذا النبي الخاتم، وهنا يذكر نبوة ذلك النبي الأول آدم، لنعلم أن نبينا لم يكن بِدعًا من الرسل، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم يتصل بنشأة الإنسان. وقد مهَّد لهذا البيان بذكر تاريخ تلك النشأة العجيبة وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة، ذلك الحديث الدالّ على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشري، إذ اختاره الله لخلافة الأرض وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم ليكون الامتنان بذلك جاريًا مع الامتنان بالنعم المذكورة في الركن الأول على أحسن نسق - ثم اتصل من هذا التفضيل إلى شرح ما نشأ عنه من حسد إبليس وعداوته القديمة للإنسان الأول ومخادعته إياه بوساوسه، وما انتهى إليه أمر الخادع والمخدوع من ابتلائهما وابتلاء ذريتهما بالتكاليف.

وهو - كما ترى - حديث يطلب بعضه بعضًا، ويأخذ بعضه بأعناق بعض.

(وأما في الركن الثالث) فقد رأيتَه هناك يصف الجنة والنار بما

لهمـــا من وصف رائع أو مروع وتراه هنــا يكتفي عن وصفهما بذكر اسمهما وتعيين أهلهما ناظمًا وضع الأجزية مع وضع التكاليف في سلك واحد، ومتخلصًا أحسن تخلص من أحدهما إلى الآخر، بتقرير أن اتباع التكاليف أو عدم اتباعها هو مناط السـعادة أو الشـقاوة في العقبى.

ولقد ختم الكلام هنا - كما ختمه في المقدمة - بشأن المخالفين تمهيدًا للانتقال مرة أخرى إلى نداء فريق منهم ودعوتهم إلى الإسلام وهو المقصد الثاني من مقاصد السورة: في ثلاث وعشرين ومئة آية (٤٠ - ١٦٢).

بحســبك أن تعلم أن هذه الســورة هي غرة الســور المدنية، وأن المدينة كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأكثرهم جدالاً فــي دينهــم بما أوتوه من العلــم قبلهم. بحســبك أن تعلم هذا وذاك لتعرف ســرَّ تلك العنايــة الموفورة بهذا الجانب مــن الدعوة، نعني دعوة بني إســرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة ولتعلم حكمة ذلك التبسط في الحديث معهم تارة، والحديث عنهم تارة أخرى، بألوان تختلــف هجومًا، ودفاعًا، واســتمالة، واســتطالة، إلى ما بعد نصف السورة.

وســترى حين تنتقــل في هذه الأحاديث مرحلــة مرحلة ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها.

(بــدأ) الكلام معهم بآية فذة (٤٠) هي على قلة كلماتها جامعة لأغــراض الحديث كلــه: ففيها يناديهم بأحب أســمائهم وأشــرف أنسابهم ويذكّرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً، ويبني على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم، ويرغبهم ويرهبهم.

(ثــم) رجع إلى هــذه الأغراض يفصّلها على تــدرّج وبقدر معلوم

فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به، في ست آيات (٤١ - ٤٦) - وبيّن مقدار النعمة التي امتن بها عليهم في آية (٤٧) ومقدار المخافة التي خوفهم منها في آية أخرى (٤٨) .

(ثم) قسم الحديث إلى أربعة أقسام :

(القسم الأول) يذكر فيه سالفة اليهود منذ بُعث فيهم موسى عليه السلام .

(القسم الثاني) يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية .

(القسم الثالث) يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام .

(القسم الرابع) يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة .

١ - ذكر سالفة اليهود (٤٩ - ٧٤):

استهل الخطابَ في هذا القسم بثماني آيات يعرّف فيها بني إسرائيل بتفاصيل المنن التي امتن بها عليهم مرة بعد مرة، وهي تلك النعم التاريخية القديمة التي اتصل أثرها وسرى نفعها من الأصول إلى الفروع، فجعل يذكرهم بأيام الله فيهم يوم أنجاهم من آل فرعون، ويوم أنجاهم من اليم وأغرق أعداءهم فيه، ويوم واعدهم بإنزال الكتاب عليهم، ويوم حقق وعده بإنزاله، ويوم قبل توبتهم عن الردة والشرك بالله، ويوم قبل توبتهم عن التمرد على نبيهم واقتراح العظائم عليه، وإنها لنعم جليلة « سابقة للذنب ولاحقة » تليّن ذكراها القلوب وتحرك الهمم لشكر المنعم وامتثال أمره.

وقبل أن ينتقل من تذكيرهم بتلك النعم الجليلة المُطمِعة للشاكرين في المزيد، إلى تذكيرهم بجرائمهم وما حاق بهم من ضروب النكال الموجبة للامتثال والاعتبار جعل بين الحديثين برزخًا مزج فيه ذكر بعض النعم بذكر ما قابلوها به بعد أن أعدَّ

النفس للسير على هذا البرزخ بالْتفاتةٍ يسيرةٍ، فيها رمز الإعراض وعدم الرضا، فبيَّن أنه تعالى متعهم فوق هذا كله متاعًا حسنًا إذ ظلل عليهم الغمام، ورزقهم من الطعام والشراب رزقًا هنيئًا من حيث لا يحتسبون، ومن حيث لا كد ولا نصب، فظلموا أنفسهم وبطروا تلك النعمة وحرفوا كلمة الشكر بتبديلها هزوًا ولعبًا، واقترحوا بدل ذلك الرزق الناعم عيشة الكدح والعناء، فألزمهم الله ما التزموا وضرب عليه الذلة والمسكنة.

وهنا محض الحديث لذكر المخالفات والعقوبات، فذكر أنهم باءوا بغضب من الله؛ لأنهم كفروا بآيات الله وقتلوا النبيين (غير أنه استثنى المؤمنين منهم من هذا الغضب) وتمردوا على أوامر التوراة جملة حتى أُرغموا عليها ثم تولوا عنها بعد ذلك حتى صاروا جديرين بأن ينزل منهم ما نزل بأهل السبت لولا فضل الله عليهم، وأنهم تباطئوا في تنفيذ أمر نبيهم وبلغ بهم الجهل بمقام نبوته أن ظنوا في بعض تبليغه عن ربه أنه هازل فيه غير جاد.

حلقة الاتصال بين القسمين الأول والثاني (٧٤):

وأراد القرآن أن يصل حاضرهم بماضيهم فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال في هذه الآية التي ختم بها القسم الأول:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾

(البقرة: ٧٤)

فقوله ﴿ مِّنْۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدد نهايته، كأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار وتركته يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة، بصيغة الجملة الاسمية في قوله ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ دون أن يقول: فكانت كالحجارة.

ثم انظر كيف كان انتهاؤه إلى وصف قلوبهم بهذا الوصف توطئة لتغيير الأسلوب فيهم، فإن من يبلغ قلبه هذا الحد من القسوة التي لا لين فيها يصبح استمرار الخطاب معه نابيًا عن الحكمة، ويصير جديرًا بصرف الخطاب عنه إلى غيره ممن له قلب سليم وهكذا سينتقل الكلام من الحديث معهم في شأن سلفهم إلى الحديث معنا في شأنهم أنفسهم.

٢ - ذكر اليهود المعاصرين للبعثة (٧٥ - ١٢١):

افتتح الكلام في هذا القسم بجملة طريفة ليست على سنن ما قبلها وما بعدها من السرد الإخباري، جملة استفهامية يكتنفها حرفان عجيبان «أحدهما» يعيد إلى الذاكرة كل ما مضى من وقائع القسم الأول. و«الآخر» يفتح الباب لكل ما يأتي من حوادث هذا القسم. وتقع هي بين التاريخين القديم والحديث موقع العبرة المستنبطة والنتيجة المقررة، بين أسباب مضت وأسباب تأتي

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾

(البقرة: ٧٥)

فهذه الفاء تقول لنا: أَبَعْدَ كل ما قصصناه يطمع طامع في إيمان هؤلاء القوم وهم الوارثون لذلك التاريخ الملوَّث؟ وهذه الواو تقول:

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾

(المؤمنون: ٦٣)

ويعود السرد الإخباري إلى مجراه التفصيلي، فيقص علينا من مساوئ أوصاف الحاضرين منهم ومنكرات أفاعيلهم وأقاويلهم زهاء عشرين سببًا لا تُبقِي مطمعًا لطامع في إيمانهم، سواء منها ما كان مختصًا بهم وما كان يشاركهم فيه غيرهم من أسلافهم أو من النصارى أو الوثنيين.

ثـم لا يـدع زعمًا من مزاعمهم إلا قفَّى عليـه بما يليق به من الرد والتفنيد.

(وقد بدأ هذا الوصف) بتقسـيمهم إلى فريقين: علماء يحرفون كلام الله ويتواصـون بكتمـان مـا عندهم من العلم لئـلا يكون حجة عليهـم، وجهـلاء أميين هـم أسـارى الأماني والأوهـام، وضحايا التضليـل والتلبيس الـذي يأتيـه علماؤهم فمن ذا الـذي يطمع في صـلاح أمة جاهلها مضلَّل مخدوع يأخذ باسـم الدين ما ليس بدين، وعالمها مضلِّل خادع يكتب الكتاب بيده ويقول هذا من عند الله؟

(وثنَّى) ببيان منشـأ اجترائهم على كل موبقة، ألا وهو غرورهم بزعمهـم أن النـار لن تمسـهم إلا أيامًا معدودة. ولقد أمـر النبي أن يوسّع هذا الزعم دحضًا وإبطالًا، وأن يتدرج معهم في هذه المجادلة على درجات المنطق السـليم والبحث المسـتقيم فيبدأ بمطالبتهم البرهـان علـى ما زعمـوا، ثم ينقضه ببيـان مخالفته لقانـون العدل الإلهي الذي لا يعرف شـيئًا من الظلم ولا المحاباة لأحد، بل الخلقُ أمامه سـواء: كل امرئ رهين بعمله، ومن يعمل سوءًا أو حسنًا يُجزَ به، ثم يعارضه بقلب القضية عليهم مبينًا لهم أنهم من أولئك الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم: ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى الله والإحسـان إلى الناس فتوليتم؟ ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتـرك الإثم والعـدوان فاعتديتم؟ ثم آمنتم ببعـض الكتاب وكفرتم ببعض، وحكَّمْتم أهواءكم في الشـرائع فكلما جاءكم رسـول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم.

(ثم أتبع ذلك سائر هناتهم) فذكر:

١ – تصامِّهم عن سماع الحق بدعوى أن قلوبهم مقفلة.

٢ – كفرهـم بالكتـاب الجديد؛ لأنه أُنزِل علـى غيرهم، بعد أن

كانت أعناقهم مشرئبة إليه ينتظرون ظهوره على يد نبي ينصرهم على المشركين.

٣ - دعواهم القيام بواجبهم وهو الإيمان بما أنزل عليهم وكفى، مع أنهم كافرون حتى بما أنزل عليهم، وتلك شنشنتهم منذ عبدوا العجل وأُشرِبوا حبَّه في قلوبهم.

٤ - زعمهم أن لهم الدار الآخرة خالصة، ثم مناقضتهم أنفسهم في ذلك بكراهتهم الموت وشدة حرصهم على الحياة.

٥ - عداوتهم لجبريل لأنه أنزل الكتاب على غيرهم، مع أنه إنما أُنزِل بعلم الله.

٦ - تكرر نبذهم للعهود.

٧ - اشتغالهم بكتب السحر وترك كتب الله وراء ظهورهم.

٨ - ليَّهم ألسنتَهم في خطاب الرسول بكلمة[٤٥] تنطوي على الاستهزاء به والطعن في دينه وإن كان ظاهرها التعظيم له، أو يراد منها إحراجه بكثرة الأسئلة والمقترحات كما سئل موسى من قبل (وقد سيق هذا في قالب تحذير المؤمنين من أن يقولوا تلك الكلمة).

---

(٤٥) هي قول: «راعنا» وهي كلمة ظاهرها الأدب، ولكنها في العربية لها معانٍ أخرى حمقاء، وفي العبرانية كلمة شتم قريبة منها، فإن لفظ (رع) عند اليهود معناه شقي شرير، ولفظ (راع) معناه الشر والشقاوة فإذا أضيف إلى ضمير المتكلمين صار بلسانهم «راعينو» » ومعناه في الخطاب أنت ضرنا وشقوتنا.. ولعلهم - والله أعلم - كانوا يلوون ألسنتهم في النطق بها ليقربوها من الصيغة العربية سترًا لنيتهم واكتفاء بالرمز المفهوم فيما بينهم، فأمر اللهُ المؤمنين أن يخاطبوا الرسول بقول: (انظرنا) حتى لا يجد المنافقون سبيلًا إلى التلاعب بلفظٍ ذي وجهين، أو أيضًا فإن (راعنا) كلمة يقولها السائل المستقصِي يطلب بها إصغاء المسئول إليه حتى يفرغ هو من أسئلته، وتلك عادة اليهود عند إكثارهم من السؤال فأمر الله المؤمنين أن يحافظوا على حسن الاستماع حتى لا يحتاجوا إلى السؤال، وأن يقولوا: (انظرنا) وهي كلمة يقولها المتعلم إذا أراد التثبت مما يقال له لا الزيادة عليه.

٩ – حقدهم وأثرتهم هم وسائر المخالفين من أهل الكتاب والمشركين وكراهيتهم أن ينزل الوحي على غيرهم، مع أن لله أن يختص بنبوته من يشاء، وله أن ينسخ شريعة ويأتي بشريعة أخرى مثلها أو خير منها.

١٠ – رغبةَ كثير منهم في أن يردوا المؤمنين كفارًا.

١١ – زعمَ كل من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة غيرُهم، أماني يتمنونها بغير برهان.

١٢ – طعن كلتا الطائفتين في أختها بقول اليهود: ليست النصارى على شيء، وقول النصارى: ليست اليهود على شيء، وطعن المشركين في كلتيهما.

١٣ – اشتراك الطوائف الثلاث في السعي لإخلاء المساجد من ذكر الله.

١٤ – اشتراكهم في الجهل بالله ونسبتهم الولد إليه.

١٥ – اشتراكهم في التوقف عن الإيمان بالرسل حتى يكلمهم الله بغير واسطة أو يُنزل عليهم آية ملجئة.

(ثم ختم هذه الهنات) بأدعاها إلى اليأس من إيمانهم، وهو أنهم يطمعون في تحويل الرسول نفسه إلى اتباع أهوائهم، فكيف يطمع هو في استتباعهم إلى هداه؟ كلّا ولكنَّ حسبه أن الراسخين في العلم منهم وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته يؤمنون بهذا الهدى الذي جاء به والكافرون هم الخاسرون.

٣ - ذكر قدامى المسلمين من لدن إبراهيم (١٢٢ - ١٣٤):

شأن المصلح الحكيم في دعوته شأن الزارع، يبدأ بالأرض دفيقتلع أشواكها وينقيها من حشائشها الضارة قبل أن يلقي فيها البذور الصالحة أو يغرس فيها الأشجار النافعة، وكذلك الداعي

الحكيـم يبـدأ بالنفـوس فيَلْويها عن الباطل والفسـاد ثـم يوجهها إلـى طريق الحق والهدى. فهذان دوران يقـوم في أحدهما بالتطهير والتخلية، وفي الثاني بالتكميل والتحلية، وأنت قد رأيت الكلام في دعوة بني إسرائيل قد مضى إلى هذا الحد في بيان عوج الطريق الذي يسلكونه، ورأيته قد أوسع البيان في ذلك حتى أتى على نهاية الدور الأول: أليس من الحق إذن أن يبدأ الدور الثاني فيبين الطريق السوي الذي يجب أن يسلكوه؟

ثم رأيت كيف اختتم البيان السـابق بذكر هدى الله والعلم الذي علمـه لنبيه وذكر الفريق الذي يرجـى إيمانهم به من أهل الكتاب، وهـم الذيـن يتلون الكتـاب حق تلاوتـه، أليس هذا الاختتام نفسـه مطلعًا تشرف النفس منه على هذا الافتتاح؟

ثـم رأيت الحديث في الدور الأول منقسـمًا إلى قسـمين: قسـم يتحدث فيه عن ماضي اليهود، وقسم يتحدث فيه عن حاضرهم. ألا يكون من حسن التقابل أن يقسم الحديث الثاني إلى القسمين: عن ماضي المسلمين وعن حاضرهم؟

ذلك هو ما تراه فيما يلي:

بل سترى ما هو أتم مقابلة ومشاكلة، فسيجري الكلام في القسم الأول هنا على سـنن الخطاب مع بني إسـرائيل، والكلام في القسم الثانـي على سـنن التحدث عنهـم، كما جرى هنالك في القسـمين سواء.

وأكبر من هذا كله أنك ترى الآيتين الكريمتين اللتين صدر بهما أول الحديـث هنـاك قد صدر بهمـا أول الحديث هنـا ليدعوهم إلى اعتنـاق الحـق بمثل ما دعاهم بـه إلى اجتناب الباطـل، وليتقرر في نفس السـامع من أول الأمر أن الحديث سـيعود كما بدأ، ولكن في

طريـق يقابل ذلك الطريـق، وبمعنى جديد هو عـدل لذلك المعنى القديم

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(البقرة: ١٢٢ - ١٢٤)

وهكذا أنشـأ يدعو بني إسـرائيل إلى طريق السـلف الصالح، لا بأسـلوب الأمر والتحريض الذي جـرب من قبل فلم ينجع فيهم، بل بأسلوب قصصي جذاب يعرض فيه ذلك التاريخ المجيد لإبراهيم - عليه السـلام - وأبنائه وأحفاده في العصـور الذهبية التي لا يختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشـركين فـي تعظيمها ومحبتها ومحبة الانتسـاب إليها (مكررًا على لسـانهم جميعًا تلـك الكلمة العذبة التـي تركها إبراهيـم باقية في عقبه فتوارثها أبنـاؤه وأحفاده يوصي كل منهم بها بنيه، كلمة (الإسـلام لله رب العالمين) وتراه في أثناء عرضه لتاريخ إبراهيم - عليه السـلام - وإمامته للناس لا ينسـى أن يحكـي كلماته التي دعا بها ربه أن يجعل من ذريته إمامًا للناس كما جعله هو.

ثـم تـراه حين يروي قيـام إبراهيم وابنه إسـماعيل ببنـاء البيت المعظـم الذي جعله الله حرمًا آمنًا ومثابـة للناس وقبلة لصلاتهم، لا ينسـى أن يحكي تضرعهما إلى الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسـولًا منهم يعلمهـم ويزكيهم. ممهدًا بهذا وذاك

لتقرير تلك الصلة التاريخية المتينة التي تربط هذا النبي وأمته بذينك النبيين الجليلين، لا صلة البنوة النسبية فحسب، بل صلة المبدأ ورابطة الوحدة الدينية أيضًا، فهم من ذريتهما، ووجودهم تحقيق لقبول دعوتهما، وملتهم ملتهما، وقبلتهم قبلتهما ومثابتهم في حجهم مثابتهما. ومقررًا في الوقت نفسه انقطاع مثل هذه النسبة المشرفة عن اليهود الذين ينتسبون بالبنوة لإبراهيم ويعقوب وهم عن ملتهما منحرفون ولوصيتهما مخالفون فماذا يغني النسب عن الأدب؟ ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٤)

٤ - ذكر حاضر المسلمين وقت البعثة (١٣٥ - ١٦٢):

واتصل ذكر الخلف بذكر السلف، وخرج الكلام من التلويح إلى التصريح، فأقبل يقرر - في جلاء - صلة هذه الأمة المسلمة بتلك الأمة الصالحة في أصول ملتها وفي أهم فروعها، ويقص علينا ما يحاوله سفهاء الأحلام من بني إسرائيل وغيرهم لحرمان المسلمين من تلك الصلة، وذلك بدعوتهم المسلمين إلى اتباع ملتهم تارة، وبالطعن في قبلتهم تارة أخرى ...

وقد رأيت الحديث الآنف كيف امتزج فيه ذكر ملة إبراهيم بذكر قبلته فانظر كيف كان ذلك تأسيسًا قويًا لما يبنى عليه هنا من ذكر ملة المسلمين وذكر قبلتهم.

قال في شأن الملة: إن أهل الكتاب يدعونكم - بعد هذا البيان - أن تكونوا هودًا أو نصارى فقولوا لهم: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفًا

وعرفوهم جلية الأمر في هذه الملة الحنيفية وأنها إيمان بالله وإيمان بــكل مــا أنزل علــى النبيين لا نفــرق بين أحد منهم ، هــذه عقيدتنا بيضــاء ناصعة ، فأي ركنيها تنقمون منــا وفي أيها تخاصموننا ؟ أفي الله وهو ربنا وربكم ، أم في إبراهيم وبنيه وهم كانوا هودًا أو نصارى ؟

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

وكان هــذا الترديــد وحــده كافيًــا لإفحامهم وإغــلاق الباب في وجوههــم من هذه الناحية ، إذ تبين أن أصــول هذه الملة أمنع من أن نقبل الجدال في شيء منها .

فانتقــل عنها وشــيكا إلى إبطــال محاولتهم الأخرى في مســألة (الكعبــة المعظمة) التــي عليها يدور العمل بشــعيرتين هما أعظم شــعائر الإســلام وأظهرها الصلاة والحج ، والتي قــد تقرر ما لها من الأصــل الأصيل فــي الدين باتخــاذ إبراهيم وإســماعيل إياهــا مثابة ومصلى ، ولكن هذا لم يكن كافيًا لإسكات المجادلين الذين اتخذوا من تحول المســلمين إليها وتركهم القبلة التــي كانوا عليها مطعنًا علــى النبوة فتنــوا به بعض ضعفــاء المؤمنين ، فمســت الحاجة إلى مزيد بســط في شــأنها تتقرر به الحجة وتدحض به الشبهة ، ولذلك تراه يوجه إليها أكبر الشطرين من عنايته :

فيأمــر النبــي –بادئ ذي بدء– أن يجيب المتســائلين عن حكمة هــذا التحويــل جواب عزة وإبــاء يرد الأمر فيه إلى من لا يســأل عما يفعل قائلًا لهم : إن الجهات كلها سواء يوجهنا الله منها إلى ما يشاء وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم .

ثم أخذ يأمر النبي تارة ، والمؤمنين تارة ويأمرهما معًا تارة أخرى ،

في أسلوب مؤكد مفصل أن يثبتوا على هذه القبلة حيث هم وفي كل مكان يقيمون فيه حضرًا، وفي كل مكان يخرجون منه سفرًا.

وطفق ينثر في تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد، فيقول: إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختبارًا لإيمان المهاجرين ليتبين من يتبع الرسول ممن ينقلبِ على عقبيه، وأما تشريع هذه القبلة الباقية فإنه ينطوي على الحِكم البالغة والمقاصد الجليلة، فهي القبلة الوسطى التي تليق بكم أيتها الأمة الوسطى، وهي القبلة التي ترضاها يا أيها النبي والتي طالما قلبت وجهك في السماء مستشرفًا إلى الوحي بها، وهي القبلة التي يعلم أهل الكتاب أنها الحق من ربهم وإن كانوا يكتمون ذلك حسدًا وعنادًا، وهي القبلة التي يشهد الله بأنها الحق من عنده، وأخيرًا هي القبلة التي لا يبقى لأحد من المنصفين حجة عليكم. أما الظالمون فلن ينقطع جدالهم في شأنها ما بقيت عداوتهم لكم، ولكن لا تخشوهم، بل وطنوا أنفسكم على التضحية في سبيل الله واصبروا ولا تحزنوا على من سيقتل منكم في هذه السبيل، فإن الموت فيها هو الحياة الباقية. ثم أومأ إلى أن الجدال في هذه القبلة ليس صدًا عن الشعائر التي في داخل المسجد الحرام فحسب، بل هو كذلك صد عما حوله من الشعائر

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾

(البقرة: ١٥٨)

ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلهما في تاريخ إبراهيم، ولكنهم يكتمون ما أنزله الله من البينات وهم يعلمون.

***

أرأيــت هــذه المراحــل الأربع التي ســلكها القرآن فــي دعوة بني إســرائيل كيف رتبها مرحلة مرحلة، وكيف سار في كل مرحلة منها خطــوة خطوة، فارجع البصر كــرة أخرى إلى هــذه المرحلة الأخيرة منها، لتنظر كيف اســتخدم موقعها هذا لتحقيق غرضين مختلفين، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متنائيين، فهي في جملتها مناجاة مــن الله للنبــي والمؤمنين فــي خاصة شــأنهم وفيما يعنيهــم من أمر دينهــم، ولكنه جعل هذه النجــوى طرفين، لون كل طرف منها بلون المقصد الذي يتصل به، فالتقى المقصدان فيها على أمر قد قدر.

ألــم تر كيف بدأهــا بأن قص علــى المؤمنين مقالــة أعدائهم في بعــض حقائق الإســلام، وعمــد إلى هــذه الحقائق التي تمــاروا فيها فجعل يمسح غبار الشبهة عن وجهها حتى جلاها بيضاء للناظرين، فكانــت هــذه البداية كما تــرى نهاية لتلــك المعــارك الطويلة التي حــورب فيهــا الباطل في كل ميــدان، ثم رأيت كيف ســاق الحديث فجعــل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائــق النظرية والعملية، ويحرضهــم على الاستمســاك بها في غير ما آيــة... أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة؟

بلى... إن ذلك هو ما توحي به ســياقة هذه النجوى المتواصلة، التي مدت في خطاب المؤمنين مدا، وحولت مجرى الحديث معهم رويــدًا رويــدًا، حتى صار كل من ألقى ســمعه إليها مليًا، يســمع في طيهــا نداء خفيًا: أن قــد فرغنا اليوم من الأعداء جهادًا، وأقبلنا على الأولياء تعليمًا وإرشــادًا، وأن قد طوينا كتاب الفجار، وجئنا نفتتح كتــاب الأبرار، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بني إســرائيل لم تكن إلا طليعة من كتائب الحق، تنبئ أن سيتلوها جيشها الجرار، أو

شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار، ألا ترى الميدان قد أصبح خاليًا من تلك الأشباح الإسرائيلية التي كانت تتراءى لك في ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا؟

أولا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الإسلامية قد انبعثت يسوق بعضها بعضًا أصول جامعة نظرية تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية... ألم يأن لسائر الفروع أن تجيء من خلفها حتى تبلغ الشمس ضحاها.

هكذا تفتحت الآذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة، فلو أنها أقبلت علينا الآن عدًا وسردًا ما حسبنا الحديث عنها حديثًا مقتضبًا.

لكن القرآن، وقد وضع على أدق الموازين البيانية وأرفقه بحاجات النفوس، لم يشأ أن يهجم على المقصود مكتفيًا بهذا التمهيد بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد، وتأخذ أهبتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد، فانظر فيما يلي:

المدخل إلى المقصد الثالث: في خمس عشرة آية (١٦٣ - ١٧٧)

نيف وعشر من الآيات الكريمة، هي بمثابة الدهليز بين الباب والدار يقطعها السائر في خطوات ثلاث: (الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود (الخطوة الثانية) تقرير وحدة الأمر المطاع (الخطوة الثالثة) فهرس إجمالي للأوامر والطاعات المطلوبة.

(الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود:

لقد جاءت هذه الخطوة في أشد أوقات الحاجة إليها بين سابقها ولاحقها، فإن ما مضى من تعظيم أمر الكعبة والمقام والصفا والمروة كان من شأنه أن يلقي في روع الحديث العهد بالإسلام معنى من

معانـي الوثنية الأولى فـي تعظيم الأحجار والمواد، ولا سـيما وهذه الأماكن المقدسـة كانت يومئذ مبـاءة للأصنام والأنصاب من حولها ومـن فوقها، فوجب ألا يترك هذا التعظيـم دون تحديد وتقييد، وألا نترك هذه الخلجات النفسـية دون دفع وإبعاد، حتى لا يبقى شك في أن قيـام المصلين عند مقام إبراهيم وتوجيـه وجوههم نحو الكعبة، وتمسح الطائفتين بأركانها، وطواف الحجاج والمعتمرين بين الصفا والمـروة، كل أولئـك لا يقصد به الإسـلام توجيه القلـوب إلى هذه الأحجار والآثار تزلفًا بعبادتها أو رجاء لرحمتها أو طلبًا لشـفاعتها، وإنما يقصد تعظيم الإله الحق وامتثال أمره بعبادته في مواطن رحمته ومظـان بركتـه، التي تنزلت فيها على عبـاده الصالحين من قبل، ثم تجديد ذكـرى أولئك الصالحين في النفـوس، وتمكين محبتهم في القلـوب، باقتفـاء آثارهـم، والتأسـي بحركاتهم وسـكناتهم، حتى يتصل حاضر الأمة بماضيها، وحتى تنتظم منها أمة واحدة تدور حول محور واحد، وتتجه إلى مقصد واحد هو أعلى المقاصد وأسماها

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

(البقرة: ١٦٣)

أتـدرون من هو..؟ إنه ليس الكعبـة وليس الصفا والمروة، ليس إبراهيم ولا مقام إبراهيم، ولكنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وسع كل شيء رحمة ونعمة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)

والذي بيده القوة كلها والبأس كله لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد

﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ (البقرة: ١٦٥)

هذا من جانب المقصد الذي وقع الفراغ منه، وأما من جانب المقصد الذي أقبلنا عليه فإن هذه الخطوة كانت أساسًا وتقدمة لا بد منها قبل الشروع في تفصيل الأحكام العملية، لتكون توجيهًا للأنظار إلى الناحية التي ينبغي أن يتلقى منها الخطاب في شأن تلك الأحكام، ذلك أن المرء إذا عرف له سيدًا واحدًا وأسلم وجهه إليه وجب ألا يصدر إلا عن أمره ولا يأخذ التشريع إلا من يده، ومن كانت له أرباب متفرقون، وتنازعت فيه شركاء متشاكسون تقاضاه كل واحد منهم نصيبه من طاعته، وكثرت عليه مصادر الأمر المطاع فأمر للآباء والعشيرة، وأمر للعرف والعوائد الموروثة والمستحدثة، وأمر للسادة والكبراء، وأمر للشياطين والأهواء... ولذلك عززها بالخطوة الثانية.

(الخطوة الثانية) تقرير وحدة الآمر المطاع:

وهي ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام، فكما أن من أصل التوحيد ألا تتخذ في عبادتك إلهًا من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع، كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حكمًا في سائر تصرفاتك، بل تعتقد أن لا حكم إلا له، وأن بيده وحده الأمر والنهي، والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، ومن استحل حرامه أو حرم حلاله فقد كفر، وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويعبد غيره، والرازق ويشكر غيره، لا يليق أن يكون هو الحاكم ويطاع غيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ (البقرة: ١٦٨)

ولقد سلك في تقرير هذه الوحدة التشريعية نحوًا من مسلكه في تقرير وحدة الإلهية.

فبدأها بأن تعرف إلى الناس بنعمة الله الشاملة ورحمته الكاملة في سهولة الشريعة وملاءمتها للفطرة، إذ إنه في سعة الاختيار لم يحرم عليهم من الطعام إلا أربعة أشياء كلها رجس خبيث، وأحل لهم ما وراء ذلك أن ينتفعوا بسائر ما في الأرض من الحلال الطيب، وفي ضيق الاضطرار جعل المحظورات كلها تنقلب مباحات مرفوعًا عنها الحرج

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣)

وناهيك بهذا الأسلوب تليينا للقلوب وحملًا لها على الخضوع لأمر هذا الرب الرءوف بعباده، أفمن يحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث أحق أن يطاع، أم من

﴿يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٦٩)

أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يُتَّبع أم من

﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـٔٗا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠)

ثم ختمها بتعريفهم مبلغ غضبه وانتقامه ممن يكتم أمره ونهيه ويبدلهما بغير ما أمر ونهى، ويأخذ على ذلك الرشا والسحت

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٤)

والناظر في منهج هذا التقرير إذا تأمل في وجه اختيار حديث المطاعم والمكاسب من بين ضروب الحلال والحرام يرى من

لطائف موقعه هنا ما يعرف به أنه هو العروة الوثقى التي شد بها وثاق البيان، وسدت بها الفروج بين خطواته السابقة واللاحقة.

فهو من الوجهة العملية أحد تلك الفروع التي سينتقل إليها الحديث عما قريب، فذكره هاهنا يعد إشعارًا بقرب الشروع في المقصد الجديد، ثم هو من الجهة الاعتقادية يتصل اتصالاً تاريخيًا وثيقًا بعقيدة التوحيد التي هو بصددها، ذلك أن أهل الجاهلية من وثنيين وكتابيين لما اتبعوا خطوات الشيطان فأزلهم عن توحيد المعبود حتى اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله لم يطل عليهم الأمد حتى فتح لهم باب التشريك في التشريع بعد التشريك في العبادة، فجعلوا يحرمون من الحرث والأنعام حلالها ويحلون حرامها، بل جعلوا عند ذبح أنعامهم يهلون بها لغير الله - يهتفون بأسماء آلهتهم - ويستحلون طعمتها بذلك فجمعوا فيها بين مفاسد ثلاث: المعصية والبدعة والشرك الأكبر.

وكأن باب التحريم والتحليل في المطاعم والمكاسب كان هو أول باب فُتح في الجاهلية للتشريع بغير إذن الله، ولذلك كان هو أول باب سده القرآن بعد باب الشرك الأكبر، فترى النهي عنه والنص عليه وبيان الحق فيه تاليًا لذكر العقائد حتى في السور المكية كسورة [٤٦] الأنعام، والأعراف، ويونس، والنحل، وغيرها.

---

(٤٦) اقرأ في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ (الأنعام: ١٣٦ - ١٥٢) وفي سورة الأعراف قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ (الأعراف: ٣١ ، ٣٢) وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ (الأعراف: ١٦٩)، وفي سورة يونس قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ (يونس: ٥٩)، وفي سورة النحل قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (النحل: ٩٥)، وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾ (النحل الآيتين: ١١٥، ١١٦).

ومما زاد موقعه هنا حُسنًا أن مجيئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلًا لمجيء حكم القبلة في سياق ذكر ملة إبراهيم، فكلاهما فرع عظيم يتصل بأصل عظيم، ألا ترى كيف ختم الكلام في شأنه بمثل ما ختم به هناك من وعيد المعاندين ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؟ (البقرة: ١٧٤) أو لا ترى كيف أن الإسلام جعل مسألتي القبلة والذبائح كليهما من الشعائر التي يتميز بها المسلم عن غيره كما يتميز بالشهادة والصلاة «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله»؟ (صحيح البخاري).

على أن بدعة التحريم بالرأي في هذا الباب لم تقتصر على الفئة الخارجة عن الملة، بل إن بعض المسلمين في عصر النبوة كادت تصيبهم عدوى الأمم قبلهم، إذ هموا أن يترهبوا، ويحرموا على أنفسهم الطيبات من الطعام وغيره، لا تحريمًا لما أحل الله منها؟ بل زهادة فيها وحملًا للنفس على الصبر عنها بضرب من النذر أو اليمين أو العزيمة المصممة، فرد عليهم القرآن هذا الابتداع وأغلق بابه إغلاقا، حتى لا يكون مدرجة لما وراءه.

ونبههم إلى أن من قضية توحيدهم لله أن ينزلوا على حكمه فيما أحل لهم، قيامًا فيه بشريعة الشكر، كما نزلوا على حكمه فيما حرم عليهم قيامًا فيه بشريعة الصبر:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقۡنَـٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢)

فانظر كيف كان خطاب الناس عامة بهذا الأصل ولواحقه توطئة لخطاب المؤمنين خاصة به وبما سيتلوه من الأحكام، كما أن خطاب الناس عامة بأركان الإسلام في صدر السورة كان توطئة لما

تلاه من خطاب بني إسرائيل خاصة بدعوتهم إلى الدخول فيه قلبًا وقالبًا، هل ترى أحسن من هذا النسق المتقابل المتعادل؟

والآن وقد أخذت النفس أهبتها لتلقي سائر الأوامر والنواهي انظر كيف خطا إليها الخطوة الثالثة والأخيرة:

(الخطوة الأخيرة) إجمال الشرائع الدينية:

وترى فيها عجائب من صنعة النسق:

(١) انظر إلى حسن التخلص في ربطه بين المقصد القديم، والمقصد الجديد على وجه به يتصلان لفظا، وبه ينفصلان حكمًا... فهو في جمعها لفظًا كأنه يضع إحدى قدميك عند آخر الماضي، وثانيتهما عند أول المستقبل ولكنه في تفريقها حكمًا بأداتي النفي والاستدراك كأنما يحول قدميك جميعًا إلى الأمام ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ (البقرة: ١٧٧)

يقول: إن مسألة تعيين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات - تلك المسألة التي شغلت بال المخالفين والمؤلفين نقدًا وردًا ـ ليست هي كل ما يطلب الاشتغال به من أمر البر، بل هي شعبة واحدة من جملة الشعب التي تشتمل عليها خصلة واحدة من جملة خصاله، وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلها، نظرية وعملية في معاملة المخلوق وعبادة الخالق، وتزكية الأخلاق، فبتلك الخصال جميعها فليشتغل المؤمنون الصادقون.

(٢) ثم انظر إليه حين أقدم على تفصيل تلك الخصال كيف أنه لم يقبل عليها دفعة واحدة، بل أخذ يتدرج إليها في رفق ولين،

فتقدم بكلمة فوق الإجمال ودون التفصيل هي بمثابة فهرس لقواعد الإيمان، ولشرائع الإسلام

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

(٣) وانظر إلى سرد قواعد الإيمان هنا كيف عدل بها عن ترتيبها المطبوع الذي راعاه في صدر السورة غير مرة، فتراه هنا يجمع بين الطرفين (الإيمان بالله واليوم الآخر) وختم بالواسطة (الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين) ذلك لأن من هذه الوسائط تعرف الأحكام الشرعية، وعن يدها تؤخذ، فأخرها لتتصل بها تلك الأحكام حتى لا يحول بين الأصل وفرعه حائل؛ ولذلك راعى ترتيب أركان هذه الواسطة فيما بينها فصدّر بالملائكة وهم حملة الوحي، وثنّى بالكتاب وهو الوحي المحمول، وثلث بالنبيين وهم مهبط الوحي، ومن هناك اتصل ببيان تلك الشرائع التي وصلت إلينا عن طريق النبوة.

***

المقصد الثالث من مقاصد السورة: في ست ومئة آية (١٧٨ - ٢٨٣)

بعد إرساء الأساس تكون إقامة البنيان، وبعد الاطمئنان على سلامة الخارج، يجيء دور البناء والإنشاء في الداخل.

نعم، لقد تم إصلاح العقيدة التي هي روح الدين وجوهره فليبدأ

تفصيـل الشـريعة التـي هي مظهـر الديـن وهيكله... لقـد أزيلت شـبه المعانديـن، وأقيمت الحجة عليهم، فلم يبق إلا إنارة السـبيل للسـالكين، وإيضاح المحجة بين يديهـم... كانت العناية من قَبلُ موجهـةً إلـى بيان حقائـق الإيمان، فلتتوجه الآن إلى بسـط شـرائع الإسلام.

وأنت فقد رأيت كيف مهّدت السـورة لهـذا التحول، إذ وضعت برزخًا يربط أطراف الحديث، ويلتقي فيه سـباقها وسياقها... ولو أنك تلفَّتَّ الآن التفاتة يسـيرة إلـى جانبك، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليـك تلك الآيـة الجامعة (آية البـر) التي انتظمت أصـول الدعوة بشطريها: النظري، والعملي، ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك، هو هذا الشطر العملي.

فاعلم الآن، أن هذا الشـطر العملي، الذي لمحناه من قبل مطويًا في فهرس موجز، سنراه فيما يلي، مبسوطًا في بيان مفصل.

ففي نيف ومئة آية، سـنرى فنًا جديدًا من المعاني، مهمته رسـم نظام العمـل للمؤمنين، وتفصيل الواجب والحرام والحلال لهم في شـتى مناحي الحياة: في شـأن الفرد، وفي شـأن الأسـرة، وفي شأن الأمة... بيانًا مؤتنفًا تارة، وجوابًا عن سؤال تارة أخرى، متناولاً في جملته عشرات من شعب الأحكام.

هـذه الحكمـة العامة: فـي تأخير إقامـة البنيان، ريثما أرسـيت قواعده وفي تأجيل الفروع حتى أحكمت أصولها، ستبدو من ورائها حكم جزئية، وأسـرار دقيقة، لمن أقبل على هـذه الفروع ينظر إلى تلاصق لبناتها في بنيتها، وتناسق حباتها في قلادتها، ثم رجع ينظر في وجه التقابل بين ذلك الإجمال السابق، وهذا التفصيل اللاحق.

فلنأخذ في استعراض الحلقات الرئيسية لهذه السلسلة الجديدة:

لقــد ختمت آية البر كما رأيت ، بخصلــة من خصال البر ، مُيزت في إعرابها تمييزًا ، فكان ذلك تنويهًا بشأنها أي تنويه . . . تلك هي خلة الصبر ، التي شَعَّبتها الآية المذكورة إلى ثلاث شعب : الصبر في البأســاء والصبر فــي الضراء ، والصبر حين البــأس . . . فهل تعلم أنه الآن وقد بدئ دور التفصيل ، ســتكون هذه الخصلة بشعبها الثلاث ، أول ما تُعنى السورة بنشره من تلك الخصال ، وأنها ستنشرها نشرًا مرتبًــا ترتيبًا تصاعديًا على عكس ترتيب الطي : الصبر حين البأس ، ثــم الصبــر في الضراء ، ثم الصبر في البأســاء . . . وهــل تعلم أن هذا النظام التصاعدي نفســه سيتبع في ســائر الخصال : الوفاء بالعهود والعقود ، ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والبذل والتضحية في سبيل الله ؟ . . . إليك البيان مفصلًا :

الصبر حين البأس:

لا تحســبنه هنا صبرًا على الجــروح والقروح في الحرب ، فذلك معنى ســلبي استســلامي ؛ ولا تحســبنه صبــرًا في البطــش والفتك بالأعداء ، فذلك جهد عملي إيجابي حقًا ، ولكن مرده إلى قوة العضل والعصب ، لا إلى قوة الخلق والأدب «ليس الشديد بالصرعة ، ولكنه الــذي يملك نفســه عنــد الغضب» (صحيــح البخــاري) . . . هكذا سيختار الله لنا من مُثُل الصبر أمثلها ، ومن موازينه أوزنها في معايير القِيــم ، ذلك هو ضبط النفس حين البأس ، كفًا لها عن الاندفاع وراء باعثــة الانتقام ، وردعًا لها عن الإســراف في القتــل ، ووقوفًا بها عند حــد التماثــل والتكافؤ العــادل (القصــاص ١٧٨ - ١٧٩) . . . وإذ كان تداعي المعاني يســوقنا من الحديث عــن القتلى ، إلى الحديث عمن هم بشــرف الموت ، ناســب تتميم الكلام ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه برًا بهم (الوصية ١٨٠ - ١٨٢) .

الصبر في الضراء:

وكذلك سيختار الله لنا من أبواب الصبر في الضراء أعلاها: ليس الصبر على الأمراض والآلام بإطلاق، ولكن الصبر على الظمأ والمخمصة في طاعة الله (الصوم ١٨٣ - ١٨٧)... وينساق الحديث من الصوم المؤقت عن بعض الحلال، إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام (١٨٨).

الصبر في البأساء:

وعلى هذا النمط نفسه، سنرى الصبر في البأساء هنا ليس هو ذلك الصبر الاضطراري على الفقر والأزمات المالية والجوائح السماوية، ولكنه الصبر الاختياري على التضحية بالأموال إنفاقا لها في سبيل الله. والمثال الذي يختاره التنزيل الحكيم هنا مثال مزدوج[٤٧]، ينتظم الصبر في البأساء والضراء جميعًا؛ إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال (الحج إلى بيت الله ١٨٩ - ٢٠٢) ولا تنس هاهنا أن تنظر إلى المعبرة اللطيفة التي انتقل بها الحديث من الصوم إلى الحج... تلك هي مسألة الأهِلّة التي جعلها الله مواقيت للصوم وللحج جميعًا (١٨٩).

ولنقف بك هاهنا وقفة يسيرة، نشير فيها إلى أن شأنا عجيبا من شئون النسق القرآني في هذا الموضع:

ذلك أنه حين بدئ بذكر الحج، لم تتصل به أحكامه ولاء، بل فصل بين اسمه وحكمه بست آيات في أحكام الجهاد بالنفس والمال في قتال الأعداء (١٩٠ - ١٩٥)... فاصلة يحسبها

---

(٤٧) بل إن شئت قلت إنه مثلث الألوان؛ لأنه سيدخل في ثناياه الصبر حين البأس في مجاهدة أعداء الله (١٩٠ - ١٩٥).

الجاهل رقعة غريبة في ثوب المعنى الجديد . . . ولكن الذي يعرف تاريخ الإِسلام وأسباب نزول القرآن ، يعرف ما لهذه الفاصلة من شرف الموقع وإصابة المحز ؛ لا لمجرد الاقتران الزماني بين تشريع الحج وبين غزوة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة ؛ ولكن لأن أداء المناسك في ذلك العام كان عزمًا لم ينفذ ، وأملًا لم يتحقق ؛ إذ أحصر المسلمون يومئذ عن البيت ، وهموا أن يبطشوا بأعدائهم الذين صدوهم عنه ؛ لولا أن اللّٰه نهاهم عن البدء بالعدوان وأمرهم ألا يقاتلوا في المسجد الحرام إلا من قاتلهم فيه ، فانصرفوا راجعين ، مستسلمين لأمر اللّٰه ، منتظرين تحقيق وعد اللّٰه . . . فكذلك فلينصرف القارئ أو المستمع هاهنا وهو متعطش لإتمام حديث الحج على أن يعود إليه بعد فاصل . كما انصرف المسلمون إذ ذاك عن مكة وهم إليها متعطشون ، على أن يعودوا إليها من عام قابل . . . هكذا كانت هذه الآيات الفاصلة تذكارًا خالدًا لتلك الأحداث الأولى . . . وهكذا كان القرآن الحكيم مرآة صافية نطالع فيها صور الحقائق من كل لون ، نقتبسها طورًا من تصريح تعبيره ، وطورًا من نهجه وأسلوبه في تعجيل البيان أو تأخيره . ثم كانت هذه الآيات الفاصلة في الوقت نفسه درسًا عمليًا في صبر المتعلم على أستاذه ، لا يعجله بالسؤال عن أمر في أثناء حديثه ؛ ولكن يتلبث قليلًا حتى يحدث له منه ذكرًا في ساعته الموقوتة . . . وهكذا لن يطول بنا الانتظار حتى نرى أحكام الحج والعمرة تجيء في إثر ذلك على شوق وظمأ ، فتشبع وتروى بالبيان الشافي الوافي (١٩٦ - ٢٠٣) . وبتمام هذا البيان تتم الحلقة الأولى من الأحكام أعني فريضة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس .

استجمامة (٢٠٤ - ٢١٤):

وشاءت حكمة الله وتلطفه بنا في تربية نفوسنا على طاعة أمره، ألا يصعد بنا إلى الحلقة الثانية من فورنا هذا، ولكن بعد استرواحة فيها شيء من الموعظة العامة. يثبت بها القلوب على ما مضى، ويوطئ لها السبيل إلى ما بقي... وكان من حسن الموقع لهذه الموعظة العامة، أنها اتصلت بالموعظة الخاصة التي ختم بها حديث الحج، والتي قسمت الناس من حيث آمالهم ومطامحهم إلى فريقين: فريق يطلب خير الدنيا ولا يفكر في أمر الآخرة، وفريق لا تنسيه دنياه مصالح أخراه (٢٠٠ – ٢٠٢) فجاءت الموعظة العامة تقسم الناس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة أو الإيثار إلى فئتين: فئة لا تبالي أن تضحي في سبيل أهوائها بحياة العباد، وعمران البلاد، وفئة على العكس من ذلك لا تضن أن تضحي بنفسها في سبيل مرضاة الله (٢٠٤ – ٢٠٧) وتخلص الآيات الحكيمة من هذا التقسيم، إلى توجيه النصح للمؤمنين بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى، ويستسلموا بكليتهم لأوامر الله، دون تفريق بين بعضها وبعض؛ محذرة إياهم من الزلل عنها بعد أن هُدوا إليها ووقفوا عليها، معزية لهم عما قد يصيبهم من البأساء والضراء في سبيل إقامتها، ضاربة لهم المثل في ذلك بسنة السلف الصالح من الأمم السابقة (٢٠٨ – ٢١٤).

هنا تمت الاسترواحة بالموعظة العامة.

وستكون الحلقة التالية في تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية التي أجملت في آية البر، وهي الوفاء بالعهود والعقود؛ وسنختار من بين هذه العقود أحقها بالعناية والرعاية: عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شئون الأسرة. أليست الأسرة هي المجال

الأول للتدريب على حسن العشرة، وعلى التنزه من رذيلة الأنانية والأثرة؟ ثم أليست الأمور متى استقامت في هذا المجتمع الصغير، استقامت بالتدريج في المجتمع الكبير، ثم في المجتمع الأكبر؟..

ترى كيف سيكون الانتقال إلى هذه الحلقة الثانية؟ هل يصعد القرآن بنا توًا إلى تفصيل هذه الشئون المنزلية المشتبكة المتشعبة؟ كلا، إن هذا البيان التربوي الحكيم لن يهجم بنا عليها دفعة، ولكنه سيتلطف في الوصول بنا إليها على معراج من الأسئلة والأجوبة، تتصل أوائلها بالأحكام الماضية: الإنفاق والجهاد (٢١٥ - ٢١٨) وتتصل أواخرها[٤٨] بالأحكام التالية: مخالطة اليتامى، وشرائط المصاهرة، وموانع المباشرة (٢٢٠ - ٢٢٢)... وهكذا نصل في رفق ولين، دون اقتضاب ولا ابتسار، إلى صميم الحلقة الثانية (٢٢٣ - ٢٣٧) حيث نتلقى في شأن الحياة الزوجية دستورًا حكيمًا، مؤلفًا من شطرين، شطره الأول يعالج شئون الأسرة في أثناء اتصالها (٢٢٣ - ٢٣٢) وشطره الأخير يعالج شئونها في حال انحلالها وانفصالها (٢٣٣ - ٢٣٧).

فخذ هذه الحلقة الجديدة من السورة الكريمة، وتعرّف أسباب نزولها، وانظر كيف كانت كل قضية منها فُتيًا في حادثة معينة منفصلة عن أخواتها؛ ثم عد لتنظر في أسلوبها البياني جملة؛

---

(٤٨) ارجع البصر كرتين إلى هذا النظام الهندسي في البيان... ثم سل نفسك هل كان في الإمكان أن يأتلف عقد نظامه لو لم تقع الأحداث التي اتخذت منها مادته؟ أو لو وقع بعضها وتخلف بعضها، أو لو وقعت كلها ولم تنبعث في روع القوم باعثة السؤال عن أحكامها..؟ لقد كان القدر يسير إذن في ركاب هذا التنظيم، فأثار مادة حوادثه، وبعث حاجات النفوس إلى طلب بيانها... ولم يبق إلا أن تقول معي: آمنت أن الذي بيده تصريف الزمان، هو هو الذي بيده تنزيل القرآن... ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

وحـاول أن تـرى عليه مسـحة انفصـال أو انتقـال، أو أن تحس فيه أثرًا لصنعة لصق، أو تكلف لحام... واعلم منذ الآن أنك سـتحاول عبثًا؛ فإنك لن تجد أمامك إلا سبيكة واحدة يطرد فيها عرق واحد، ويجري فيها ماء واحد، على رغم أنها جمعت من معادن شتى..

تأمل أول كل شيء في خط سير المعاني:

انظر كيف اسـتهل الحديث بإرسـاء الأساس؟ وذلك بتقرير حق العشـرة والمخالطة الزوجية (٢٢٣) ثم انظر كيف تلاه النهي عن إدخال اليمين في أمثال هذه الحقوق المقدسـة، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل (٢٢٤ - ٢٢٥) وكيف عقبه بحكم فرع من فروع هذا المبدأ متصل بالعلاقة الزوجيـة، وهو حكم مـن حلف على الامتناع عـن زوجته (٢٢٦ - ٢٢٧) وكيـف اتصل مـن هنا بأحكام الطلاق ومـا يتبع الطلاق من حقوق وواجبات (٢٢٨..).

فإذا أعجبك هذا التسلسل المعنوي، وهذا التدرج المنطقي، في شـئون كانت متفرقة، ارتجلتها الحوادث ارتجالًا، فتعال معي لأضع يـدك في هذه القطعة على حرف واحد تلمـس فيه مبلغ الإحكام في التأليف بين هذه المتفرقات، حتى صارت شأنًا واحدًا ذا نسق واحد:

ذلك هو موضع النقلة من فتيا الإيلاء، إلى فتيا الطلاق:

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢٢٧، ٢٢٨)

ألا تـرى كيف أدير الأسـلوب في حكم الإيـلاء على وجه معين، يطـل القارئ منـه على أفق متلبد ينـذر باحتمال الفـراق؛ فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريبًا، بل وجد مكانه مهيأ لـه من قبـل؛ كأن خاتمة حكم الإيلاء كانت بمثابـة عروة مفتوحة، تستشـرف إلى عروة أخرى تشـتبك معها؛ فلما جاءت فتيا الطلاق فـي إبانها كانت هـي تلك العـروة المنتظرة. وما هـو إلا أن التقت العروتـان حتـى اعتنقتا وكانـت منهما حلقـة مفرغة لا يـدرى أين طرفاها. وهكذا أصبح الحديثان حديثًا واحدًا.

تـرى مـن علـم محمدًا - لـو كان القـرآن من عنده - أنه سـوف يُسـتفتى يومًا ما فـي تلك التفاصيل الدقيقة لأحـكام الطلاق؟ ومن علمه أنه سـيجد لهذا السـؤال جوابًا، وأن هذا الجواب سيوضع في نسـق مع حكم الإيلاء، وأنه ينبغي لاسـتقامة النسـق كله أن يسـاق حكـم الإيلاء، الذي وقع الاسـتفتاء فيه الآن، علـى وجه يجعل آخر شـقيه هـو أدناهما إلى حديث الطلاق الذي سـوف يسـأل عنه بعد حيـن؛ لكـي ينضم الشـكل إلى شـكله متى جـاء وقـت بيانه؟... هيهات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى؛ فإنما ذلك شأن عالم الغيب والشهادة، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى...

وتمضـي السـورة في هـذا النمط الجديـد، مفصلة آثـار الطلاق وتوابعـه كلهـا: عـدة، ورجعـة، وخلعًـا، ورضاعًا، واسـترضاعًا، وخطبة، وصداقًا، ومتعة... إلى تمام هذه الحلقة الثانية (٢٣٧).

وهنالك تبدأ الحلقـة الثالثة ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ (٢٣٨ - ٢٧٤).

فلننظر: كيف تمت النقلة بين هاتين الحلقتين؟

إننا بمقدار ما رأينا من التلبث والتمكث، والاسـتجمام والتنفس

بيـن الحلقـة الأولى والثانية، سـنرى على عكس ذلـك بين الحلقة الثانيـة والثالثة نقلة شـبه خاطفـة بل لفتة جد مباغتة، قد يحسـبها الناظـر اقتضابًا؛ وما هي باقتضاب إلا في حكم النظر السـطحي... أمـا من تابع معنا سـير قافلة المعاني منذ بدايتهـا، وقطع معنا ثلثي الطريق الذي رسمته آية البر: من الوفاء بالعهود، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، فإنه لا ريب سـوف يستشـرف معنا إلى ثلثه الباقي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وبذل المال على حبه في سبيل الله؛ وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة قد جاءت هنا في رتبتها وفي موضعها المقدر لها، وفق ترتيبها في الآية الجامعة.

سـيقول قائـل: نعم، لقـد جاءت فـي موضعها ورتبتهـا؛ ولكن الانتقال إليها قد تم دون إعداد نفسي، ولا تمهيد بياني.

نقـول: بـل كان هذا الإعـداد والتمهيد، في الآيـة الكريمة التي ختمت بها الحلقة السابقة:

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٧)

فهـذه لو تدبرت معبرة ذهبية وضعت في وقت الحاجة إليها بعد أن استطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية؛ معبرةٌ جـيء بها لتنقلنا من ضوضاء المحاسـبة والمخاصمة، إلى سـكون المسـامحة والمكارمـة؛ فكانـت معراجًا وسـطًا صعد بنـا إلى أفق أعلـى، تمهيدًا للعروج بنا فيما يلي إلى الأفق الأعلى... ألا تسـمع إلى هذه الكلمات: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

لا تنسـوا. الفضل... بينكم... إن كل حرف في هذه الكلمات

ينــادي بأنهــا كلمــات حبيــب مــودع، كان قد أقــام بيننا فتــرة ما، ليفصــل في شــئوننا، ثم أخذ الآن يطوي صحيفــة أحكامه، ليتحول بنــا عنها إلى ما هو أهم منها؛ فقال لنا وهو يطويها: دعوا المشــادة في هذه الشــئون الجزئية الصغرى؛ ســووها فيما بينكم بقانون البر والفضل، الذي هو أسمى من قانون الحق والعدل؛ وحولوا أبصاركم معــي إلى الشــئون الكلية الكبــرى، التي هي أحق بــأن يتوفر عليها العزم والقصد، وأحرى أن يشــتغل بها العقل والقلب... نعم، نعم. لقد كفاكم هذا حديثًا عن حقوق الزوج والولد، فاســتمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن:

حافظــوا علــى الصــلاة... أنفقوا فــي ســبيل الله... جاهدوا في سبيل الله..

وبعــد، فهل حديث الصلاة هنا يعتبر مقصدًا أصليًا مســتقلًا، أم هو جزء من مقصد آخر؟

لكي نحسن الجواب عن هذا السؤال، يجمل بنا أن نرجع البصر كرة أخرى، لننظر في جملة الخصال التي جمعت في آية البر، والتي فصلــت في الآيــات من بعدها إلى قــرب آخر الســورة، ولنقارن بين حظوظها من عناية الذكر الحكيم فماذا نرى؟

نــرى التنويه بفضيلتــي الإنفاق والجهاد في ســبيل الله، لا يزال يعاد ويردد في مطالــع الحديث ومقاطعه، في إجماله وفي تفصيله، ترديدًا ينادي بأنه هو المقصود الأهم، والهدف الأعظم من التشريع فــي هذه الســورة... فلو أننــا في ضوء هــذا الأســلوب تمثلنا تلك البيئة وأحداثها وتمثلنا القوم وهم تتلى عليهم شــرائع هذه الســورة وأحكامها، لتمثلنا معسكرًا ثابتًا للجهاد المزدوج، المالي والبدني، ولتمثلنا على رأس هذا المعســكر قائدًا يقظًا حريصًا، لا يعزب عنه

شأن من شئون جنوده، خاصها وعامها، ولا يفتأ يلقي عليهم أوامره وإرشاداته في مختلف تلك الشئون كلما فرغ من إفتائهم في نوازلهم العارضة الوقتية، رجع بالحديث إلى مجراه العتيد، في شأن مهمتهم الرئيسية.

ضع هذه اللوحة الجندية أمام عينيك... فلن يكون عندك عجبًا أن ترى الحديث في شأن الجهاد يبرز الآن على إثر تلك الشئون؛ ذلك أن بساطه كان أبدًا منشورًا، وأن داعيته كانت دائمًا قائمة؛ فإذا عاد ذكره بعد أن زال ما حوله من الشواغل الوقتية، فإنما يجيء على أصله وسجيته؛ فلا يسأل عن علته...

ماذا نقول؟... شأن الجهاد!! أليس الحديث سيفتتح الآن بشأن الصلاة، وعدة الوفاة، لا بشأن الجهاد؟

بل نقول، ونحن نعني ما نقول: إن الحديث يعود الآن إلى شأن الجهاد، وإن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين من حيث هم مجاهدون، ليحل المشاكل التي يثيرها موقف الجهاد نفسه، قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال..

فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب: ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله؟

يجيبنا الكتاب العزيز: لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها، لا في سلم ولا في حرب، لا في أمن ولا في خوف: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ (البقرة: ٢٣٨) وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد: في صفات الصلاة وهيئتها: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٩). والصلاة كما نعلم قوة معنوية على العدو، وعدة

مــن عــدد النصــر[٤٩]، لا جرم كان مــن الحكمة أن تــزود بها أرواح المجاهديــن، قبــل أن يؤمــروا بالقتــال أمــرًا صريحًــا، والصلاة في الوقت نفســه طهرة للنفس من مســاوئ الأخــلاق، تنقيها من دنس الشــح والحــرص على حطــام الدنيــا[٥٠]، لا جرم كان مــن الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية الآنفة، التي أمرتنا بالتســامح والتكارم في المعاملات... هكــذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة: دواء وغــذاء معًــا، ينظر إلــى الأمام وإلى الــوراء جميعًا، بــل قل إنه مثلــث الفائــدة؛ لأنه في نظره إلــى الخلف لا ينظر إلــى الآية الآنفة وحدهــا، بل ينظر كذلك إلى الآية الجامعة، ليفصل إجمالها في هذا الجانب..[٥١]

(٤٩) هكذا قال الله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: ٤٥).

(٥٠) وهكــذا قال الله في وصف الإنســان: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ (المعارج: ٢١، ٢٢)

(٥١) إذا فهمــت حسن هذا التلطــف، في الانتقال من المعنى القديم إلى المعنى الجديد، وأدركــت جمال هذه الأوضاع الهندسية، التــي تناسقت بها المعاني السابقة واللاحقة، فقــد زالت عنك شبهة الاقتضاب هنــا في الانتقال إلى حديث الصلاة.. غير أننا إذا قسنا هــذه النقلة إلى النقلة السابقة بين الحلقتــين الأولى والثانية، ألسنا نرى هذا التمهيد قصــيرًا، وهذا التحول سريعًا؟ أليست النفس في سيرها هنــا تدركها رجة خفيفة لهذا التحول السريع الذي تفرضه عليها حركة قائدها؟

ألا فاعلم - علمك الله - أن هذه سرعة مقصودة، وأن من الخير لنا أن نحس بهذه الرجة الخفيفة من أثر ذلك التحول السريع، فإن لذلك مغزى عميقًا في تربية النفوس المؤمنة.. أن هذه النقلة تصور لنا ما يجب أن يكون عليه المؤمن، إذا سمع نداء الواجب الروحي وهــو منهمك في معركة الحيــاة فكأننا بهذا الأسلوب الحكيم ينادينــا: إنه ليس شأن المؤمن أن يحتاج إلى كبير معالجــة للتسامي بروحه فوق مشاغل الأهل والولد، وإنما شأنــه أن ينتشل نفسه من غمرتها انتشالا فوريًا، ليسرع إلى تلبية ذلك النداء الأقدس، قائلا للدنيا كلها: «دعيني أتعبد لربي!».

نعم هذا شــأن المؤمنــين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة: ١٦)

والجندي في الحرب تشغله على الأقل مخافتان: مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه، من أخطار الموت أو الهزيمة، ومخافة على أهله من الضياع والعيلة لو قتل... لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه كلتا المخافتين، أما أهله فقد وصى الله للزوجة، إذا مات زوجها، بأن تمتع حولا [٥٢] كاملًا في بيته، وكذلك مطلقته سيتقرر لها حق في المتعة لا ينسى فليقر عينًا من هذه الناحية (٢٤٠ - ٢٤٢) وأما خوف الموت فليعلم أن الذي يطلب الموت قد توهب له الحياة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ (البقرة: ٢٤٣).

وأما خوف الهزيمة فإن النصر بيد الله ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩) وتلك سنة الله في المرسلين (٢٤٦ - ٢٥٣).

هكذا أبعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين، بعد أن زودت أرواحهم بزاد التقوى، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسي كامل، لتلقي الأوامر العليا، فليصدر إليهم الأمر صريحًا بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم (٢٤٤ - ٢٤٥) [٥٣] ولتفصل لهم

---

(٥٢) للمفسرين في هذه الآية قولان مشهوران: أحدهما: أنها وصية مندوبة لا واجبة. الثاني: أنها كانت واجبة في صدر الإسلام ثم نسخت بالآية السابقة (٢٣٤) التي توجب تربص أربعة أشهر وعشر لا أكثر.. وواضح أن كلا القولين مبني على أن آية الحول يسري حكمها على الأزواج عامة.. ولكن السياق الحكيم أوحى إلينا هذا المعنى الجديد: وهو أن تربص الحول الكامل كان خصوصية فضلت بها زوجات المجاهدين على زوجات القاعدين. والله أعلم.

(٥٣) من الطرائف البيانية في أسلوب القرآن هنا أن النتيجة فيه تقع من المقدمات موقع المركز من الدائرة، لا موقع الطرف من الخط كما هو شأن الأسلوب التعليمي المشهور. ألا ترى هذا الأمر بالقتال في سبيل الله (٢٤٤) قد أحيط من جانبيه كليهما=

العبر التاريخية، التي تثبت أقدامهم حين البأس، والتي تزيدهم أملًا في النصر (٢٤٦ - ٢٥٣).

والجهاد كما قلنا جهادان: جهاد بالنفس، وجهاد بالمال، وليس الجهاد بالمال وقفًا على شئون الحرب، بل هو بذله في كل ما يرفه عن الأمة، ويقوى شوكة الدولة، ويحمي حمى الملة.

ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة في آية قصيرة (٢٤٤) ثم في آيات كثيرة (٢٤٦ - ٢٥٣). وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه في آية قصيرة (٢٥٥) فمن العدل أن يأخذ تمام حظه في آيات كثيرة كذلك... وهكذا نرى الدعوة إليه تأخذ الآن قسطها، مطبوعًا بطابع الشدة تارة (٢٥٤ - ٢٦٠) (٥٤) وطابع اللين تارة (٢٦١)

=بدعائمه وبواعثه، إجمالا قبل، وتفصيلا بعد؟.. على أن هذا المنهج الطريف لا يخص هذا الموضع من القرآن، فإنك ستجد شواهده مبثوثة في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز.. تدبر قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ (المائدة: ٣) فإن كمال الدين الإسلامي باشتماله ماديًا وروحيًا على كل النظم الكفيلة بإصلاح الفرد، والأسرة، والجماعة، والدولة، والإنسانية العامة، لم يُذكر من دلائله قبل إلا طرف يسير. أما بقية البرهان فقد نثرت حباته على أثر ذلك إلى تمام الآية العاشرة من السورة المذكورة.. وانظر قوله تعالى في سورة النحل: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ (النحل: ٥١) فقد جاء وسطًا بين دلائل الوحدانية في التدبير، ودلائل الوحدانية في الإنعام والإحسان.. وتأمل قوله في السورة نفسها ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ (النحل: ٨٩) فقد جاء بعد تبيين أصول العقيدة، وقبل تبيين أصول الفضيلة العملية. ومن جملة السابق واللاحق، يتألف البرهان على صدق هذه القضية، وهي أن الكتاب تبيان لكل شيء.

(٥٤) ففي هذه الآيات السبع تحذير شديد للبخلاء من يوم لا يبذل فيه فداء، ولا يغني فيه خليل عن خليله، ولا تنفع فيه شفاعة الشافعين، ثم تأكيد لهذا المعنى بمحو كل شبهة يتعلق بها من يعتمد على الشفعاء، ونفي كل سلطان ونفوذ لغير الله، ورفع كل ريبة عن حقيقة يوم الدين.. وذلك كله ليكون البذل عن إيمان وعقيدة سليمة، لا رياء ولا زلفى لأحد، ولكن ابتغاء لوجه الله الواحد الأحد.

وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى (٢٦٢ - ٢٧٤) .

ثم ينساق الحديث من فضيلة التضحية والإيثار، التي هي أسمى الفضائل الاجتماعية، إلى رذيلة الجشع والاستئثار، التي هي في الطرف المقابل، أحط أنواع المعاملات البشرية (أعني رذيلة الربا، التي تستغل فيها حاجة الضعيف، ويتقاضى فيها المحسن ثمن المعروف الذي يبذله)، (٢٧٥ - ٢٧٩) وكان هذا الاقتران بينهما في البيان إبرازًا لمدى الافتراق بين قيمتهما في حكم الضمائر الحية.

وبين هذين الطرفين المتباعدين، يقيم القرآن ميزان القسط في الحد الأوسط، جاعلًا لصاحب الحق سلطانًا في المطالبة برأس ماله كله لا ينتقص منه شيء ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٩)، غير أنه يحذرنا من سوء استعمال هذا الحق بإزاء المعسرين، فيأمرنا أن نتخذ فيهم إحدى الحسنيين: إما الانتظار إلى الميسرة، وإما التنازل لهم نهائيًا عن الدين وهذه أكرم وأفضل ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠).

ولما كان الطابع البارز في هذا التشريع القرآني، وهو طابع القناعة والسماحة، قد يوحي إلى النفوس شيئًا من التهاون في أمر المال، وربما مال بها إلى التفريط في حفظه وتثميره، جاءت آيتا الدين والرهان[٥٥] (٢٨٢ - ٢٨٣) تدفعان عن نفوسنا هذا التوهم، وتصوغان للمؤمنين دستورًا هو أدق الدساتير المدنية، في حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل، تمهيدًا لإنفاقها في أحسن الوجوه... فمن لم يجد سبيلًا إلى التوثق بوثيقة ما، ولم يبق أمامه إلا أن يكل عميله إلى ذمته وأمانته ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

(٥٥) وآية الدين هي أطول آية في القرآن.

وهكذا ختم الشطر العملي من السورة، بهذه القاعدة المثلى، التي هي أساس كل معاملة شريفة، أعني قاعدة الصدق والأمانة، جعلنا الله من أهل الصدق والأمانة... آمين.

المقصد الرابع من مقاصد السورة: في آية واحدة (٢٨٤)

في الآية السابقة، انتهت مهمة الأحكام التفصيلية، عند الحد الذي أراد الله بيانه في هذه السورة، وبها ختم الشطر الثاني من الحقيقة الدينية، وهو شطرها العملي، بعد أن أرسى شطرها الاعتقادي في الآية ١٢٢ وما بعدها.

وهكذا تناول البيان حتى الآن: ١ - حقائق الإيمان. ٢ - شرائع الإسلام... هل بقي في بنيان الدين شيء فوق هذه الأركان؟

نعم، لقد بقيت ذروته العليا، وحليته الكبرى بعد الإيمان... والإسلام... بقي الإحسان، وهو كما فسره صاحب الرسالة - صلوات الله وسلامه عليه - أن تراقب الله في كل شأنك، وأن تستشعر مشاهدته لك في سرك وإعلانك، وأن تستعد لمحاسبته لك، حتى على ذات صدرك، ودخيلة نفسك... مطلب عزيز لا يطيق الوفاء به كل مؤمن، ولا كل مسلم، وإنما يحوم حول حماه صفوة الصفوة من المتقين... وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صان الله درته اليتيمة في هذه الآية الواحدة، التي توج بها هامة السورة:

﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾

(البقرة: ٢٨٤).

الخاتمة: في آيتين اثنتين (٢٨٥ - ٢٨٦):

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها، وألم بعناصره جميعها: الإيمان، والإسلام، والإحسان، لم يبق بعد تمام الحديث إلا طي صحيفته، وإعلان ختامه؟

فهل تعرف كيف طويت صحيفة هذه السورة، وكيف أعلن ختامها؟

لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة البقرة، لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة مع هذه الخاتمة، ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا ليلتحم من قوسيهما سور محكم يحيط بهذه السورة، فإذا هي سورة حقًا أي بنية محبوكة مسورة.

ألم يكن مطلع السورة وعدًا كريمًا لمن سيؤمن بها ويطيع أمرها بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح؟

ألسنا نترقب الآن صدى هذا الوعد؟ بلى، إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة: هل آمن بها أحد، وهل اتبع هداها أحد، ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع، أن تحدثنا عن جزاء من استمع واتبع..

وهكذا سيكون مقطع السورة:

(١) بلاغًا عن نجاح دعوتها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

(٢) وفاء بوعدها لكل نفس بذلت وسعها في اتباعها: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

(٣) فتحًا لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين، فليبسطوا إذن أكفهم مبتهلين: ربنا.. ربنا.. ربنا ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ (البقرة: ٢٨٦).

تلك هي سورة البقرة... أرأيت وحدتها في كثرتها: أعرفت اتجاه خطوطها في لوحتها؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير

ملاط يمسكها، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها، لا أقول أحسن دمية، بل أجمل صورة حية كل ذرة في خليتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقسوم، وفقًا لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها...
فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجم منها - كسائر النجوم في سائر السور - كان يوضع في رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارًا لحلوله، وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل؟ ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام، بل بتسعة أعوام؟

لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية (معجزات) ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات!

الفهرس

***